رواية واقعية

‘ ملحمة نيريز ’

بقلم المؤرخ
نبيل الزرندي

يقدمها بتصرف
سيفي سيفي
(15 ابريل 2016 م)

رواية واقعية حقيقية

حدثت في إيران سنة 1850م

أثناء الحكم القاجاري

أسماء شخصياتها موثقة،

مقتبسة عن كتاب (مطالع الأنوار)

للمؤرخ البهائي 'نبيل زرندي'،

إضافة الى مصادر تاريخية أخرى.

المقدمة

السيد ‘آية الله يحيى الدارابي’، من أشهر علماء الدين الاسلامي في إمبراطورية فارس القاجارية في منتصف القرن التاسع عشر. معروف بغزارة علمه وعمق حكمته؛ كان يسكن ضيفاً بأمر الملك ‘محمد شاه’ في منزل ‘لطف علي’ رئيس التشريفات في العاصمة طهران، حينما انتدبه الشاه للتحقق من دعوة لشاب يدعى ‘السيد الباب’، انطلقت شرارتها من مدينة شيراز في جنوب البلاد، وراحت تنتشر بعنف في طول البلاد وعرضها، حيث صار لها أتباع ومريدون يعرفون بإسم ‘البابيين’. وبعد أن زوّده بالمال والرجال، قدّم له سيفه المرصّع وحصانه الأصيل، تسهيلاً لمهمته وفرط محبته واحترامه له.

كان الشيخ يحيى يشعر من جانبه أيضا، برغبة مشابهة لاستطلاع حقيقة هذه الدعوة، لكن الظروف كانت دائماً لا تسمح له؛ أما عندما وصله الفرمان الملكي، فقد كانت فرصة لتحقيق الرغبتين معاً. وبذلك راح يستعد للسفر.

بعد لقاءه مع الشاب الشيرازي لثلاثة أيام متوالية سنة 1846م، أعلن دون خوف ولا وجل للعامة والخاصة عن أيمانه بالدعوة الجديدة، وعُرف من ساعتها باسم السيد ‘وحيد دارابي’.

بعد المقابلة وتنفيذاً لأمر الملك، كتب وحيد رسالة جوابية من سطر واحد وبعثها للشاه، قال فيها:- (لقد وجدت ملك الملوك، وليس لي بعد الآن شأن بملكك.).

رغم وصول هذه الرسالة الجريئة، إلا أن الملك الحكيم عقّب عليها: (إذا صحّ ذلك، فالأليق بنا أن لا نقلل من أهمية أمر السيد الباب). ثم أرسل فرماناً الى حاكم شيراز ‘حسين خان’، يمنع فيه أي شخص من التفوه بأي كلمة يُشمُ منها رائحة الانتقاص من مرتبة السيد يحيى الرفيعة، باعتباره من سلالة الأشراف وذو علم واسع وفضل تام، وأنه يسعى دائما لما يؤول الى تقدم مصالح المملكة وعزة الاسلام. وبقي الملك يظهر احترامه وتوقيره للشيخ كلما حانت فرصة لذلك.

كان هذا الأمر الملكي الصريح كافياً، لدفع حاكم شيراز الى كظم غيضه تجاه الدارابي بعد تصريحه عن أيمانه العلني، وراح يخطط مع أنصاره سراً، لتقويض منزلته والحط من شأنه. ورغم أنه كان يرسم على وجهه علامات الاستحسان والرضى، إلا أنه لم يستطع دائما إخفاء كراهيته للشيخ.

ساح وحيد أنحاء البلاد يطوفها داعياً منادياً للدين الجديد، فذهب الى مناطق كردستان الواسعة وجال بين وديانها وسهولها، ثم عاد الى مناطق فارس ومدنها وقراها، وعزم نحو مدينة قزوين ودخل مناطقها وحاراتها؛ وكان يواجه دائماً بالتكذيب والسخرية في كل مكان ذهب اليه، مما يدفعه لتغيير مسكنه من مكان الى آخر. وبقي لا يكل ولا يمل ولا تفتر له عزيمة في نشر دعوة سيده، واستمر على حماسته المتوقدة وشجاعته المتناهية وإيمانه الثابت الذي لا يزعزع، يخطب في الأسواق ويعتلي منابر المساجد ويدعو كل من يجد فيه رغبة للاستماع.

بعدها سافر الى مدينة قُم، ثم مدينة كاشان، واستمر يتنقل حتى وصل مدن اصفهان وأردستان وأردكان، وهذا ما زاد من عدد الكارهين له، وراحوا يتحينون الفرصة للفتك به. لكن محبة الملك كانت تقف حائلاً في سبيلهم.

في شهر سبتمبر سنة 1848م، أُعلن عن وفاة الملك، وهو في الأربعين من عمره تقريباً، فأدرك المناؤون لوحيد أن الفرصة قد حانت لترجمة ما في صدورهم من غل الى أفعال؛ فراحوا يتكاتفون ويكثفون جهودهم، حتى نجحوا في تحريض موظفو الدولة وقواد الجيش وكبار الشخصيات والعوام من أتباعهم على القيام لمحاربته والتخلص منه ومن مريديه، وهذا ما تسبب في تجمع نيران الحقد وتبلور كتلتها حتى انفجرت بركاناً من المواجهات العنيفة والصدامات الدامية والقتال الشرس، سُجلت خلالها أروع الملاحم البطولية والشجاعات المتناهية بين وحيد وأتباعه من جهة، وبين قوات الجيش وفرسان القبائل وعوام الناس من جهة أخرى.

7 مايو 2016 م
بيرجن/النرويج

الفصل الأول
مدينة يـزد

بعدما ساح وحيد في أنحاء مدن إيران وقراها وهو يبشر بمعتقده الجديد، وصل في منتصف شهر مارس سنة 1850م الى مدينة يزد التي ازدادت فيها مشاعر العداء ضده وأصبحت أكثر علناً بعد موت الملك. وفي المقابل، ما زال هناك كثير من محبيه الذين سارعوا لمقابلته والترحيب به، وأقاموا له وليمة كبيرة تليق بمقامه حضرها لفيف من رجال الدولة وعدد من رجال الدين، أحدهم كان يكنّ له حقداً شديداً يدعى 'نواب رضوي'.

عندما شاهد نواب مقدار مظاهر الأبهة والتكريم تقدم لضيف الشرف، ويعمّ الجمع مظاهر الفرح والإنبساط وتمتليء المائدة بأشهى المأكولات وأنواع الأطعمة والحلويات وتنتشر على الجوانب سلال الزهور وباقات الورد، تحركت في صدره روح الضغينة والحسد أكثر مما سبق، خاصة عندما سمع 'وحيد' يدعو الحضور لاعتناق الدين الجديد.

عندها فاض الكيل وطفح المقدار، واستمر نواب يطلق تعليقاته السمجة للسخرية من 'وحيد' وما يدعو إليه؛ ردّ عليه الشيخ ـ بعدما لم يعد بالإمكان السكوت أكثر من ذلك ـ بإسلوب أحرجه أمام الحضور وأجبره على التزام جانب الصمت، رغم شعوره بمرارة الإهانة. فضمر في صدره النيّة بوجوب ردّ الصاع صاعين في وقت مناسب آخر وكظم غيضه وهو يتظاهر بتقبّلها كنوع من المزاح الثقيل.

استمر 'وحيد' في حديثه يدعو الحضور جهرةً، وعندما ظهرت علامات الاستحسان على وجوه البعض وراحوا يستفسرون منه عن حقيقة معتقده، شعر آخرون بالغضب من هذه الجرأة، وقرروا التحالف مع نواب بضرورة الوقوف في وجهه واستئصاله من مدينتهم.

وهكذا بدأوا يجتمعون للتداول في كيفية التخلص منه، وراح كل منهم يكشف عن حقيقة ما يتأجج في صدره من نيران الكراهية ضده، وتعاهدوا على ضرورة هدم سلطته وإفشال مقصده بكل سرعة. فكان ذلك الاجتماع نقطة البداية لمخططات وأحداث خطيرة لاحقة.

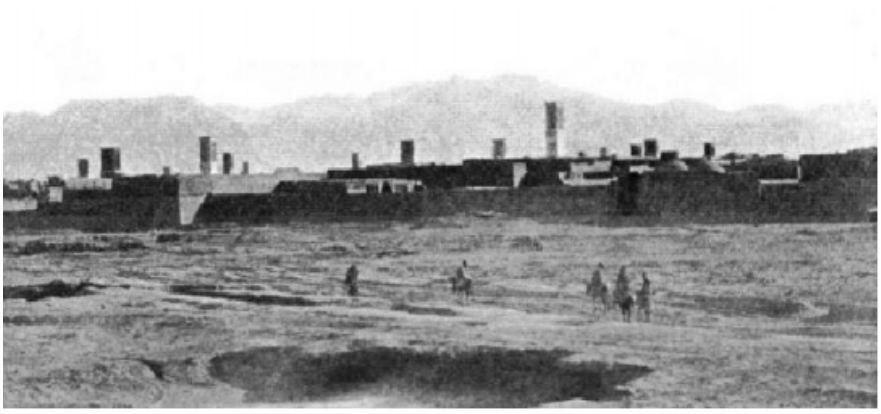

صورة قديمة لمدينة يزد

وأول عمل أقدموا عليه، نشر الإشاعات عن تجاسر وحيد في إعلان معتقده دون وجل بما يخالف تعاليم الاسلام، وزادوا عليها كثيراً من المفتريات والأكاذيب وحذروا العامة داخل المساجد بوجوب الوقوف في وجهه وعدم إفساح المجال له، وإلا فستكون العواقب وخيمة وسيتبعه الجهلة من أهالي المدينة بسبب علو مكانته وسمعته الشهيرة.

فانتشرت الأقاويل والإشاعات بين الناس كانتشار النار في الهشيم وتناقلها سكان يزد والمناطق المحيطة بها، مما زاد في إشعال الكراهية والأحقاد في قلوب خصومه. إلا أن هذه الشائعات كان لها في نفس الوقت مردود مخالف، حيث ازدادت أعداد الوافدين الى منزله يستفهمون عن حقيقة معتقده، مما زاد في أعداد المقبلين لها حتى وصلوا المئات.

كان وحيد على علم بما يخططه مناوئيه ويفعلونه، إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في نشاطه لعدة أسابيع أخر، وبقيت الوفود تتقاطر الى منزله من كل حدب وصوب، فأصبح البيت مركزاً لتجمع المخلصين والتواقين لشخصيته.

عندما لاحظ نواب زيادة عدد الزوار والمشجعين وما يسودهم من هياج وحماس لمناصرة وحيد، أدرك أنه لم يعد بالإمكان السكوت أكثر من ذلك، وأن الوقت قد حان للتقدم خطوة جديدة في تدبيراته، فتوجه الى بيت حاكم المدينة

الشاب 'أقا خان'، ليلفت إنتباهه الى حراجة الموقف ويحرك عامل الخوف في صدره من الأهداف الخطيرة للتجمعات السرّية في منزل وحيد، وحذره من احتمال ثورة السكان وحصول فوضى واضطرابات داخل مدينته، ولفت انتباهه الى احتمال أن يثير كل ذلك غضب الملك الشاب ناصر الدين شاه ضده.

وقع الحاكم الساذج بسهولة فريسة لتدابير نواب ومكائده، وبانت عليه معالم الحيرة والارتباك، وراح يستشير كبار موظفيه الذين عاضدوا رأي نواب وأشاروا عليه بضرورة قطع دابر وحيد وقتله قبل استفحال أمره.

عندها قرر الحاكم اصطحاب فوج من الجنود والتوجه لمحاصرة بيت وحيد والقبض عليه. ولمّا شاهد 'نواب' حماسة الحاكم واستعداد الجنود، لم يترك مثل هذه الفرصة الفريدة تفلت من يديه، فخرج بدوره يحرض الجماهير من فوق منبر جامع المدينة لمساندة قوات الحكومة ونجح في جمع عدد من المسلحين والغوغاء لمرافقة قوات الجيش، بعدما شرح لسامعيه قدسية هذا العمل المبرور ومكانته عند الله.

حملت جموع الأهالي أسلحتها وما طالته أيديهم، واخترقوا شوارع المدينة وأزقتها يهدرون بصيحات الغضب والوعيد التي هزّت نوافذ البيوت القديمة من حولهم، وكانوا يعلنون في كل مكان عن بغيتهم لمهاجمة منزل وحيد. وكلما كانوا يقتربون، يزدادون صخباً وصياحاً، خاصة بعد انضمام المزيد من السكان الى صفوفهم وراح بعضهم يطلق الرصاص عالياً في الهواء مما أرهب بعض سكان المنطقة.

في تلك الساعة، كان وحيد جالساً أمام نافذة بيته حينما وصله ضجيج القادمين، فأسرعوا يطلعونه على حقيقة ما يجري، وطلب بعضهم منه بارتباك واضح، ضرورة مغادرة المنزل بالسرعة الممكنة، خشية على حياته. لكنه بقي هادئا غير مبال، حتى بعد سماعه أصوات الرصاص تقرب من منزله. فالتفت نحو من كانوا حوله وقال لهم أنه لا ينوي البتة إثارة مشاكل طائفية بين الناس، وأنه سيخرج بنفسه ليكلم قادة القادمين ويوضح لهم حقيقة الأمر.

في هذه الأثناء، وصل خبر المسيرة الصاخبة الى أحد محبي وحيد الشجعان من الذين كانوا قد اعتزلوا الناس مع جماعة من أصحابه داخل بيت

بعيد في مكان قصي عند أطراف المدينة. وحالما أدرك حقيقة ما يجري، أخذته حرارة الحماس ودبّت فيه مشاعر النخوة وقال يخاطب أتباعه: إن الوقت قد أزف! فهيا نخرج من عزلتنا ونحمل السلاح للدفاع عن ديننا وعن وحيد ومنزله.

خرج 'محمد عبدالله' ومن خلفه جماعته يسرعون بجيادهم حاملين بنادقهم وسيوفهم يتسابقون للوصول الى بيت وحيد قبل وصول المهاجمين، ونجحوا في ذلك.

عندما وصلت جموع المتظاهرين الى بيت وحيد وعلى رأسهم نواب، فوجئوا بمشاهدة 'محمد' وأصحابه يقفون بانتظارهم شاهرين أسلحتهم. فحصلت مجادلات عنيفة وتجاذب وصياح بين الطرفين، ثم إزداد الوضع سوءاً وبدأ الطرفان يتبادلان الشتائم والسباب ثم تطور الى تشابك بالأيدي والهراوات، وسرعان ما راح أفراد كلا المجموعتين يبحثون عن أي ركن أو زاوية أو سطح بيت ليتمترسوا خلفه، ثم بدأوا بتبادل إطلاق النار، وبعد معركة حامية لكنها قصيرة، وجد المهاجمون أنفسهم في موقف صعب، خاصة بعدما أصيب وقتل عدد قليل منهم، فراحوا يتراجعون ليخلوا المكان. وعندما لاحظت جماعة محمد انسحاب المهاجمين وتراجعهم، راحت تلاحقهم حتى أخرجوهم من الزقاق تماماً وهم بحالة من الفوضى والذعر، لدرجة أن بعضهم ترك سلاحه وفرّ هارباً مولياً الأدبار، يسبقهم الحاكم ومن قبله نواب. وراحوا يلتجئون الى قلعة قريبة تدعى 'نارين' طلباً للأمان.

بزوال خطر المهاجمين وهدوء الموقف، عاد 'محمد' وصحبه يتضاحكون ويتبادلون التهاني ويعيدون تمثيل بعض مشاهد الأحداث. وبينما هم على هذه الحال، فوجئوا بوحيد يقف على عتبة داره وهو بانتظارهم. وبعدما بادرهم بالشكر والامتنان لما قدموه من جهد ومخاطرة بأرواحهم، راح يوضح لهم أبعاد هذه المواجهة الخطيرة، وأن ما حصل سيجر المدينة الى مشاكل أخرى أكبر لا داعي لحصولها، وحذرهم أن 'نواب' لن يترك هذه الإهانة الكبيرة تمر دون استغلالها لإثارة الحكومة وأهالي المدينة ضده مرة أخرى، وسيدّعي ساعتها أنني أريد إثارة السكان ومعارضة الحكومة والتوسع للسيطرة على المدينة بكاملها. لذلك، أطلب منكم بكل المحبة، مغادرة المكان وعدم العودة الى هنا مرة أخرى.

كان الجميع ينصت له باهتمام وأدب، وحالما انتهى من كلامه، أعلنوا موافقتهم لرغبته وانصياعهم لأمره وراح ينادي بعضهم على بعض للتجمع ومغادرة المكان بعد أن قبّلوا يديه وطلبوا مسامحته.

وبينما هم في طريق العودة، قال 'محمد' لرفاقه مسفراً عن حقيقة مشاعره، أنه قرر عدم التراجع عن معاقبة المهاجمين ومحاربتهم، وسيعتبر نفسه جباناً متخاذلاً إذا ترك أصحابه يقتلون وتحرق بيوتهم دون مساعدتهم في الدفاع عن أنفسهم، وأكد أنه لن يفعل إلا ما يقتضيه عليه واجبه. وبدلاً من تكملة طريق العودة والابتعاد عن مكان الأحداث، إذا به يخاطب رجاله ويشجعهم على اغتنام الفرصة ومهاجمة المنهزمين الذين احتشدوا بجوار أسوار قلعة 'نارين' قبلما يفيقوا لرشدهم ويستعدوا لهجوم آخر.

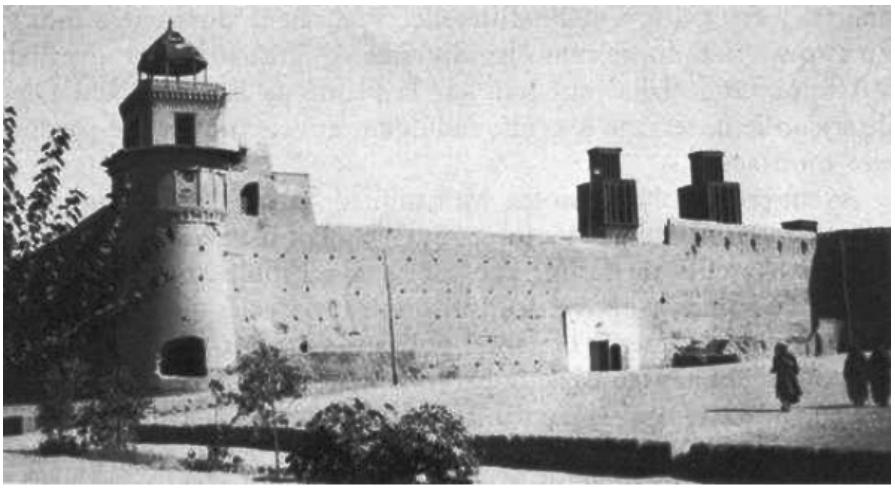

قلعة نارين

استحسن رفاقه الفكرة، واستداروا دون تأخير لمهاجمة الجنود المرتبكين في غفلة منهم، وظهروا عليهم شاهرين سيوفهم ويطلقون الرصاص. فما كان من الجنود ومن معهم من الضباط والأهالي إلا التسارع لدخول القلعة والاحتماء بداخلها وهم في حالة من الفوضى والتخبط حاملين جرحاهم مثلما حصل في المرة السابقة قرب منزل وحيد. ولأن الحاكم كان يقف مع عدد من ضباطه

يحاول ترتيب أمورهم واستعياب ما حدث، فوجئ ومن معه بالرصاص يأز فوق رؤوسهم، فلم يجد بداً من مزاحمة جنوده والاسراع في دخول القلعة.

عندما وصل 'محمد' وجماعته قرب بوابة القلعة، وجدها مقفلة وساحتها خالية والجنود يعتلون أسوارها يستطلعون أخباره ورفاقه. فقرر وأصحابه المرابطة حول القلعة وانتظارهم؛ وفي نفس الوقت، كانوا يطلقون النار على كل من يطل برأسه من فوقها. ثم رتبوا أمرهم ونشروا الكمائن لمنع وصول أي امدادات اليهم.

أما 'نواب'، فكان قد افترق ومن معه عن الجنود ولجأ الى داخل المدينة، وعندما علم بمحاصرة محمد وجماعته للقلعة، عاد يؤلب الأهالي ويثيرهم لمهاجمة منزل وحيد الذي بقي دون حراسة إلا من فئة قليلة من الشجعان وعلى رأسهم أحد أصدقائه المخلصين واسمه 'السيد عبد العظيم الخوئي' الذي كان له سابق خبرة في القتال.

فاستدعاه وحيد وأمره باصطحاب أربعة رجال والتوجه الى داخل المدينة ليجول في أنحائها ويحذر السكان من مغبة مهاجمة منزل وحيد وإلا سينالوا عقاباً أشد مما حصل لكتيبة الجيش ومن كان معهم.

امتطى عبد العظيم سرج جواده على الفور، وانطلق مع رفاقه نحو المدينة يطوف أزقتها وأسواقها وهو ينادي بأعلى النداء محذراّ من التجرؤ والإقدام على أي عمل طائش يمس سلامة وحيد وأسرته، وينصح بعد الإصغاء لما يقوله نواب الحاقد.

فأدخلت كلماته الحاسمة وشجاعته الواضحة وصوته الجهور وهيئة مرافقيه الأشداء رعباً في قلوب سامعيه، وأعربوا من فورهم عن تبرئهم من نواب وأفعاله، ووعدوا بعدم ارتكاب أي عمل يضر بوحيد وأصحاب بيته.

عندما وصل 'نواب'، خبر تأثير كلمات عبد العظيم في نفوس الأهالي، وثبوط همّتهم عن مهاجمة منزل وحيد؛ قرر تغيير خطته وإغتنام الفرصة للتوجه نحو مهاجمة 'محمد' وأصحابه بغية فك الحصار عن الحاكم وجنوده، وبذل كل ما في وسعه لاقناعهم؛ وعندما شاهد علامات القبول وحماس الجموع وتشجعهم،

أمر أحد رجالهم الشجعان بقيادتهم نحو القلعة لفك الحصار عنها. فانطلقوا وهم يرددون الأهازيج ويضربون الطبول.

أدرك محمد وجماعته ما يجري، واستعدوا لملاقات القادمين وبدأ كل منهم يحتل موقعا مناسبا للدفاع؛ لكن المهاجمون خرجوا عليهم من أزقة المدينة المختلفة، ودارت بينهم معركة عنيفة، استطاع خلالها المدافعون تشتيت شمل المهاجمين وإعادتهم من حيث خرجوا، ثم راحوا يلاحقونهم.

في هذه الأثناء، عندما شاهد المحاصرون داخل القلعة، انشغال محمد وجماعته بملاحقة الأهالي لداخل أزقة المدينة وحاراتها، وابتعادهم بمسافات كافية، اغتنم ضباطهم الفرصة وأمروا بفتح البوابة وبدء الهجوم، وراحوا يطلقون الرصاص على ظهور جماعة محمد، مما أسقط العديد منهم بين قتيل وجريح.

عندما انتبهت جماعة محمد لخطورة الموقف وما أحاط بها ووقوعهم بين كفّي كماشة مميتة، سادتهم الفوضى وارتفع صياحهم ليختلط بصوت الرصاص، فراحوا يتدبرون أمرهم بالانسحاب الى مكان آمن حاملين معهم جرحاهم وقائدهم الذي أصيب في قدمه.

طلب محمد من أخيه الذي كان يمسك بلجام حصانه، أخذه الى بيت وحيد، باعتباره أكثر الأماكن أماناً، وذلك لوجود أتباع وحيد وأنصاره هناك. أما الجنود فراحوا يبحثون عن محمد لإلقاء القبض عليه بعدما شاهدوا إصابته.

شجع هذا النصر، بعض أهالي المدينة للذهاب الى منزل وحيد ومهاجمته من جديد. ومرة أخرى بدأت أصوات التهديد والسباب تصل مسامع وحيد وأهل بيته، وهو يقف فوق سطح منزله يستطلع الأخبار. عندها نادى على صديقه 'الملا محمد رضا'، وكان قد تكفل بحراسة بيته، وأمره بأخذ سبعة من الرجال ومهاجمة المتجمعين وتشتيت شملهم. فخرجوا وهم يحملون سيوفهم ويكبرون بأعلى صوتهم، مما أخاف المهاجمين وأوقع الرعب في قلوبهم. وبعد معركة عنيفة وسريعة، قتل خلالها سبعة ممن تجرأوا على منازلة هذه الثلة القليلة وأرادوا إثبات شجاعتهم، بينما لاذ بقيتهم بالفرار بعدما شاهدوا تساقط شجعانهم بسيوف المهاجمين.

عند عودة الرجال الثمانية، وجدوا محمد جريحاً يستلقي داخل غرفة خارجية في بيت وحيد؛ حيث استغل أخوه وأصحابه فرصة تراجع المهاجمين فتسللوا حاملين محمد معهم. ولخطورة الموقف، أمر وحيد بضرورة نقل الجريح الى مكان آخر أكثر آماناً. لكن جرحه لم يلتئم، وبقي يعيق حركته وهو يتنقل من مخبأ الى آخر، حتى أكتشف أعدائه مكانه، فهجموا عليه ذات ليلة، وقتلوه ومن وجد معه شر قتلة.

أدرك وحيد خطورة الموقف وشدة تأزمه، وتوقع أن المشاكل لن تتوقف طالما بقي 'نواب' يحقد عليه ويسعى خلفه. فما كان منه إلا أن أمر أصحابه بالتفرق ليلاً كل الى حيث يشاء، ونبههم الى ضرورة توخي الحذر وعدم اصدار ما يثير انتباه أعدائهم أثناء المغادرة. كما طلب من زوجته أخذ طفلين من أولاده والذهاب للسكن في بيت والدها، وتركه لمصيره ولما ستؤول اليه قادم الأحداث.

ثم نادى على خادمه وسلّمه بعض الأوراق والوثائق المهمة، وطلب منه المغادرة وانتظاره خارج بوابة المدينة، ووعد اللحاق به خلال ساعات. وعندما خرج الخادم، ارتبك عندما شاهد الجنود يفتشون الخارجين والداخلين الى المدينة؛ فحاول تغيير مساره، لكن الجنود لاحظوا ذلك وأمروه بالتوقف، ولمّا لم يمتثل بعد تكرار ندائهم وتحذيرهم، أطلقوا عليه النار وقتلوا حصانه ثم ألقوا القبض عليه واستولوا على ما معه ثم قتلوه بعدما تعرفوا على شخصيته.

أما وحيد فكان يرتب أموره على عجل ويستعد لمغادرة بيته مع ولديه الصغيرين واثنان من خلّص أصحابه الشجعان، توسلا اليه أن لا يتركهما. وعندما وصل ورفاقه الى المكان المتفق عليه، لم يجدوا الخادم، وبينما هم يبحثون عنه بهدوء وحذر، فهموا من المتواجدين في المكان، أن حسن قد أعدم عند الصباح مع شخص آخر، بعد أن ربط كل منهما الى فوهة مدفع وأطلقا في الفضاء.

وعندما علم أهل المدينة صباح اليوم التالي برحيل وحيد واختفاءه، زاد ذلك من هياجهم، فانطلقوا متوجهين لمنزله ينهبونه ويهدمون جدرانه بعدما أشعلوا النار فيه.

أما حاكم مدينة يزد ‘أقا خان’، فقد قرر عدم ملاحقة وحيد، وفضّل إلقاء القبض على أتباعه وخاصة الأغنياء منهم ومصادرة أملاكهم وقتلهم، ليضاعف ثرواته.



الفصل الثاني

مدينة نيريز

خرج وحيد من يزد ومعه خادميه يحملان ولديه متوجهين الى مدينة نيريز؛ ومع أنه لم يكن متعودا على المشي، إلا أنه استطاع قطع مسافة طويلة في ظلام تلك الليلة، حتى بدأت أنوار شمس الصباح تنير ما حولهم.

كان يعلم أن أخبار الأحداث وما حصل من هياج ومعارك في مدينة يزد، قد سبقته الى حاكم نيريز وأهلها، ولا بد أن قرر حاكمي المدينتين السعي في إلقاء القبض عليه. لذلك فضل اللجوء الى جبل مجاور للإختباء بين تجاويف صخوره، ثم أرسل خادماً الى أخيه الساكن في إحدى قرى تلك الأنحاء ليبلغه بما آلت اليه تطورات الأمور، كما طلب منه بعض الطعام، بعدما بدأ الصبيان يشعران بالجوع.

ذهب الخادم يسرع الخطى متجنباً الإحتكاك بالمسافرين في ذهابه وإيابه؛ ثم عاد عند المغيب، حاملاً بعض الطعام ليخبر سيده بصواب رأيه حينما قرر اللجوء بين الصخور واتخاذ الحيطة والحذر، لأن حاكم يزد قد سبقه وأرسل مجموعة من الخيالة الى بيت أخيه للبحث عنه، وكانوا يتوقعون العثور عليه هناك، ولما لم يجدوه، سرقوا ما وصلت اليه أيديهم من محتويات البيت، إضافة الى كميات من الطعام، ثم عادوا أدراجهم بعدما خربوا أثاث المنزل.

كان على وحيد أن يكمل المسير ليصل الى مدينته، فالبقاء في هذا المكان المقفر فيه خطر كبيرعلى حياته، لكن نور النهار كان عائقاً دون ذلك، فمن الوارد أن يتعرف عليه أحد رجال القوافل، أو يعود الجنود للبحث عنه مرة أخرى. لذلك فضّل تكملة سفره عبر المسالك المهجورة وبقي يسعى والصبيان يحاولان مجارات والدهما، وكلما تعبا، حملهما الخادمين على أكتافهما، فالوقت وما يحيط بهم من أخطار لا تسمح بالتأخير، ومن حسن حظهم أن الصخور والأشجار كانت تحجب عنهم عيون المارة.

استمرت المجموعة الصغيرة تمشي حتى أدميت أقدامهم وأصابهم تعب شديد، وعندما وصلوا الى إحدى القرى ـ وكان أكثر أهلها من المعجبين بوحيد

وعلى رأسهم رجل الدين 'السيد إسماعيل' ـ استقبلهم أهلها بالترحاب وقدموا لهم ما يحتاجونه من طعام ولباس، واقترحوا عليهم البقاء في قريتهم حيث لا خطر عليهم بين أهلها. لكن وحيد أظهر عزمه على مواصلة السفر وتكملة المشوار، وهذا ما دفع بعدد من رجال القرية الى تجهيز أنفسهم وأسلحتهم استعداداً لمرافقته وحمايته. فخرجوا عند فجر اليوم التالي، وهم يتجنبون جماعات المسافرين، محاولين قدر الإمكان عدم جلب الانتباه خشية افتضاح أمرهم.

كانت المسافة ما تزال طويلة، ومروا خلالها بعدد من القرى الصغيرة، فكان وحيد يغتنم الفرصة في كل مرة ـ غير مبالٍ بتعب الطريق ومشاقه ـ فيدخل المساجد ليدعو أهلها لمناصرة دعوته، وهذا ما أحرج عدداً من مرافقيه ودفعهم لزيادة الحيطة والحذر.

كان لوقع كلماته أثراً كبيراً في نفوس مستمعيه، فتثير الحماسة في صدورهم وتدفع مزيداً من الرجال لمرافقته بأسلحتهم وخيولهم. وبعدما إزداد عدد مرافقيه من الفرسان، تشجّع ليكمل ما تبقى من المسافة في وضح النهار، وراح يسلك الطريق العام دون حذر. وحينما اقترب من نيريز، قرر المبيت عدة أيام بين أهالي قرية قريبة منها كانوا من أشد المعجبين به، بعدما بالغوا في إكرامه واظهروا له منتهى المحبة والاحترام.

في هذه الأثناء، وصلت أخبار اقترابه الى أهالي نيريز، فتحركوا ومعهم لفيف من سكان القرى المجاورة يتوافدون للقاءه والترحيب به، وكل منهم يدعوه لدخول المدينة والسكن في بيته وعدم الخشية من حاكمها أو جنده.

في البداية، كان الأهالي يتوافدون لزيارته ليلاً، خشية افتضاح حركتهم ومعرفة الحاكم بأمرهم، أما بعدما تجاوزت أعدادهم المئات، لم يعد هناك موجباً للحذر، خاصة حينما خرج معهم قاضي الإقليم 'الشيخ عبد العلي' والد زوجة وحيد ومعه مجموعة من أعيان المدينة وكبار شخصياتها وكذلك أحد أقرباء الحاكم نفسه.

وحينما تأكد الحاكم من اقتراب موكب وحيد وإقامته في إحدى القرى القريبة من المدينة، بدأ يرسل جنوده لتحذير السكان وتهديدهم بالقتل والحبس

ومصادرة الأملاك. إلا أن ذلك لم يثنهم عن عزمهم واستمروا في زياراتهم وزادوا من ولاءهم لوحيد، وكراهيتهم للحاكم.

امتلأ صدر حاكم نيريز 'زين العابدين خان' رعباً وحقداً لمثل هذا التحدي الواضح لأوامره وتجاهل تحذيراته، وأدرك شدة كراهية أهل المدينة له. فما كان منه ـ وخوفا على حياته من تمردهم عليه ـ إلا أن أمر بنقل مستلزمات بيته وأثاثه الى قرية أخرى حيث مسقط رأسه، يجيد أهلها فن الرماية والقتال، ويُعتمد عليهم في الأزمات والملمات، إضافة الى وجود قلعة كبيرة بقربها قد يحتاجها ليحتمي بها.

في تلك الأثناء، وصل وحيد إلى ضواحي نيريز، وكان رجال الدين قد سبقوه في تحذير السكان من مغبة الترحيب به، إلا أن عددا من رجال المدينة، خرجوا لمقابلته والترحيب به ومرافقته حتى دخل المدينة.

تصادف دخول وحيد الى مدينة نيريز، موطنه الأصلي ومسقط رأسه، صباح يوم 27 مايو/أيار سنة 1850م. وبمجرد وصوله ـ وغبار السفر ووعثاءه ما زالا يغطيان عمامته وملابسه ـ توجه إلى مسجد المدينة وارتقى منبره وراح يخطب في الجموع المحتشدة يطالبهم بالتعرف على دين 'الباب' واعتناق رسالته. وتكلم بفصاحة وبلاغة وقوة ألهبت صدور مستمعيه وجعلتهم متكهربين من ندائه لنصرة الدين الجديد.

كانت أعدادهم لا تقل عن ألف وخمسمائة رجل، اكتظ بهم المسجد حتى وقفوا عند بوابته وخارجها، وكانوا يقاطعون الخطبة بين الحين والآخر ليظهروا تأييدهم لنصرة دينه بحماس منقطع النظير، ويؤكدون بفرح ولاءهم لله تعالى ولهذه البشارة السعيدة. فلقد أثرت الخطبة في نفوسهم تأثيراً سحرياً لم يعهد مثلها أهالي نيريز من قبل. ومن ضمن ما قاله بعد أن انخفض صوت الحضور وهدأت حماستهم: 'إن الغرض من مجيئي إلى نيريز، هو إعلان أمر الله تعالى لأهالي مدينتي. وأشكر الله أني تمكنت من غرس بذور محبة الرسالة الجديدة في قلوبكم. والآن بعد أن أتممت مهمتي، لا أرى سبباً يدعو لإطالة بقائي بينكم، فلقد حققت ما أصبوا اليه، وأخشى إن أطلت بقائي، أن يسيء الحاكم معاملتكم بسببي، وربما

يطلب تعزيزات من عاصمة المقاطعة 'شيراز' لمهاجمتكم وقتلكم وتخريب بيوتكم، لذلك سأرحل قريباً الى مكان آخر'.

ما كاد وحيد ينهي عبارته الأخيرة ويعلن عزمه على ترك المدينة، حتى نهضت الجموع تتزاحم حوله وهم يعلنون توكلهم على الله واستعدادهم لمناصرة دينه، وأن لا رغبة لهم بمفارقته ولمّا يمض لهم ساعات قليلة معه. فأحضروا له حصاناً ورافقوه يحفّون به الى منزله. وهكذا سكن وحيد مدينة نيريز وانشغل بتعريف من تقبّل الايمان من زوار بيته مستمراً على إلقاء الخطب في مسجد المدينة حتى كثر أتباعه وتجاوزت أعدادهم الألوف، وهذا ما زاد من رعب الحاكم 'زين العابدين خان' وخوفه، وأشعل نيران الحقد والعداوة لضيف المدينة الجديد. فقرر ترتيب أموره وحشد ما يكفي من قوات الجيش لمعاقبة الأهالي واعتقال وحيد وقتله، وقتل كل من يناصر دينه منهم.

الفصل الثالث

المعركة الأولى

كان الهدوء يعمّ جميع المناطق، ولا تبدو هناك أية بوادر لتحركات الجيش أثناء النهار الذي مضى هادئاً. أما عندما حان وقت الليل وأحاطت ظلمته المكان، بدأت حشود الجنود والضباط تتحرك بهدوء لترتيب استعدادات الهجوم بعيدا عن عيون السكان كي لا يلفتوا انتباههم. وبهذا استطاع الحاكم جمع ألف رجل من شجعان الفرسان والمشاة، وجهزهم بكامل العدة والسلاح وموفور العتاد، وأمرهم البقاء في ثكناتهم مختبئين هادئين حتى موعد الأمر بالهجوم المباغت.

ورغم هذه الاحتياطات، إلا ان عيون المتطفلين وسكان القرى القريبة ورعاة الأغنام، تنبهوا لما يجري من حركات غير عادية داخل المعسكر والثكنات، فوصلت الأخبار الى وحيد وصحبه وأخبروهم بتدابير الحاكم الشريرة.

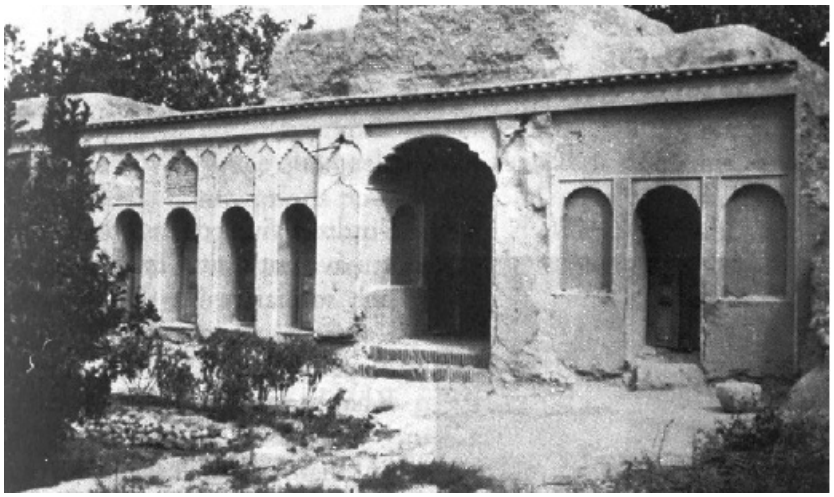

منزل وحيد في مدينة نيريز

واستباقاً للأحداث وعدم إعطاء الحاكم ورجاله فرصة المبادرة، أمر وحيد مجموعة من رجاله للتحرك والذهاب لاحتلال قلعة كبيرة عالية منيعة تقع خارج

المدينة تدعى ‘قلعة خواجه’، وعيّن لهم قائداً يدعى ‘الشيخ هادي’ وأمرهم بزيادة تحصينات القلعة وتقوية بوابتها وأسوارها ورفع مستويات أبراجها. أما هو فبقي مع مجموعة من أصحابه في بيوتهم داخل المدينة.



منظر عام لمدينة نيريز القديمة

تملك الحاكم الغرور بعدما شاهد مقدار قوة جيشه وكثرة جنوده وتنوع أسلحتهم وعتادهم؛ ومما زاد في غطرسته، تشجيع ضباطه في التعجيل بمعاقبة محتلي القلعة، لافتين نظره لقلة شأن رجالهم وافتقارهم للسلاح والعتاد، ومبينين مواطن ضعفهم وهزال قدراتهم لصد هجوم جيش بعدته وعتاده.

تشجع الحاكم وقرر العودة للسكن داخل المدينة واتخذ له موقعاً بجانب قلعة أخرى تشرف أبراجها وأسوارها على كامل بيوت البلدة وضواحيها. وأمر جيشه بتقوية جدرانها وتحصينها وتعلية أبراجها مثلما فعل أصحاب وحيد، لتكون مقراً احتياطياً للحماية والتجمع إذا ما تأزمت الأمور لسبب من الأسباب ولتكون ـ في نفس الوقت ـ مهجعاً لسكن الجنود ومقراً لإقامتهم.

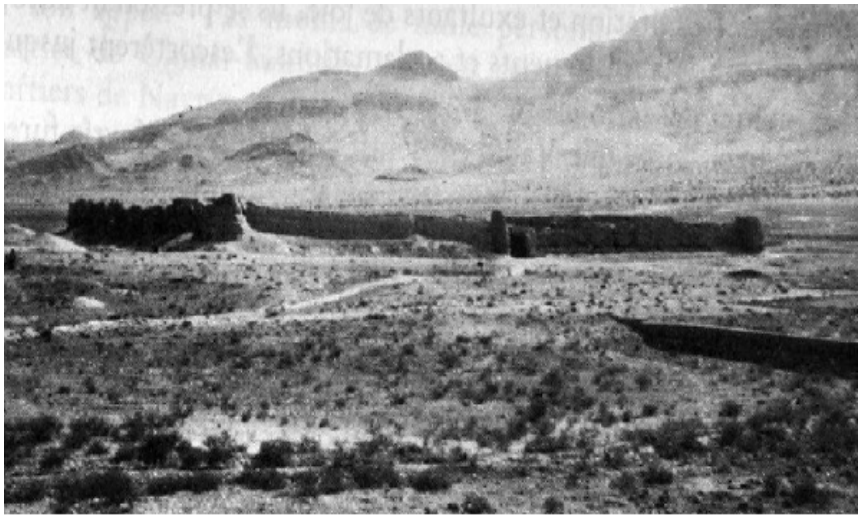

قلعة خواجه

بعد أن نقل الجنود أسلحتهم ومعداتهم وخيامهم الى داخل القلعة، توجه الحاكم وبصحبته قوة كافية لاحتلال منزل كبير لأحد أصحاب وحيد من أغنياء المنطقة، وأجبره على مغادرته ليجعله مقراً لقيادته. ثم نادى على أخيه 'محمد علي خان' وعيّنه رئيساً لقواته وأمره بالتوجه فوراً لتحديد مواقع مناسبة لمدفعيته ثم البدء بتوجيه قذائفها على قلعة خواجه ومن في داخلها، كنوع من الانذار والتحذير للخروج وتسليم أنفسهم.

وتنفيذاً لأمر أخيه، أمر القائد جنوده البدء بإطلاق عدة رشقات من القنابل والدانات نحو أسوار قلعة خواجه وأبراجها، فتهدمت بعض أجزاء الأسوار وأصيب رجل كان يصلي على السطح، وهذا ما دفع المحاصرون للاسراع في إصلاح ما تهدم وإعادة ترتيبه.

أحدثت قوة قنابل المدافع ولهيب نيرانها اضافة الى ما ارتفع من أصوات الرصاص المفاجيء ورؤية كثرة الجنود وتنظيمات صفوفهم، مفعولين متباينين بين المحاصرين داخل القلعة. فانقسموا الى فريقين، فريق تشجع وحمل سلاحه واتخذ له مواقع دفاعية وراح يرد على مصادر النيران، وفريق أصابه الخوف

والاهتزاز، وقرروا الانسحاب وإخلاء مواقعهم، فتسللوا عند حلول الليل عائدين لداخل المدينة، ومنهم من انضم لصفوف الجيش.

عندما علم وحيد بما جرى، وسمع أصوات المدافع والرصاص؛ أدرك خطورة الموقف وما يُخطط له الحاكم، فقرر ترك بيته والانضمام مع مجموعة من رجاله الى المحاصرين لشد أزرهم ومساعدتهم. وما أن صلى الفجر، حتى امتطى حصانه وانطلق مسرعاً نحو القلعة مع مجموعة من الرجال ليجعلها مقراً لقيادته.

عندما علم الحاكم بانضمام وحيد وقوة من الفرسان الى مجموعة المحاصرين، فسّر هذه الخطوة كإعلان صريح لمناوءة قوات الحكومة والتحضير لقتالها. لذلك نادى على أحد ضباطه الكبار وأمره باصطحاب قوة كافية لمهاجمة القلعة واقتحامها والقبض على قائدها ومن معه.

كان عدد المتحصنين لا يزيد عن مائة رجل، وعندما أدرك وحيد خطورة الموقف ولاحظ التفوق العددي الكبير لجنود أعداءه وقوة نيران مدفعيتهم، قرر مباغتتهم بالهجوم لتشتيت شملهم قبل استكمال استعداداتهم. فنادى على رئيس قواته وأمره باصطحاب مجموعة من الفرسان للهجوم على المعسكر عند الفجر قبل أن يفيق الجند من نومهم.

لم يتوقع الضباط والجنود أبداً من ثلة محاصرة قليلة الخبرة والعدد، أي جرأة للخروج من مخبأهم ومهاجمتهم، لذلك باتوا مطمئنين يغطون في نومهم.

وفي الوقت المحدد والظلام ما زال يخيّم على المنطقة وأصوات الديكة تعلو ضعيفة من البيوت البعيدة تعلن بداية فجر جديد، كان فرسان القلعة يتجمعون بهدوء على صهوات جيادهم. وحالما اكتملت جاهزيتهم، أشار قائدهم بحركة من يده آمراً بفتح البوابة، فخرج الجميع هبّة واحدة وهم يكبرون بأعلى النداء.

فكانت مفاجئة كبيرة أذهلت ضباط الجيش وجنودهم، خاصة وأكثرهم ما زالوا نياماً، ولم يفيقوا من نومهم إلا وسط كابوس مرعب وهم يشاهدون خيول المهاجمين تخترق خيامهم وتسقطها فوق رؤوسهم والنيران تلتهب فيها،

وشاهدوا زملاء لهم ممن حاولوا التصدي والمسارعة بحمل سيوفهم وبنادقهم يقتلون أمام عيونهم.

وبهذا ساد المعسكر هرج ومرج وحصل هياج واضطراب، وصعب على الضباط تدارك الموقف، وراح كلٌ منهم يصدر أمراً يخالف صاحبه، وعندما أدرك الجنود حجم الخطر وشاهدوا ما يجري لزملائهم وأكثرهم ما زالوا بملابس النوم، أطلقوا أرجلهم للريح يسابقونها وكلٌ منهم يحاول النجاة بنفسه. فتشتتوا في كل جهة هاربين من المعسكر تاركين أسلحتهم ملتجئين الى أي منزل قريب طلبا للحماية؛ ولما شاهد الضباط قلة عددهم، وتراكض الجنود وفرارهم بعيداً وخلو المعسكر من القوات، لم يجدوا بداً من اللحاق بجنودهم والمسارعة للنجاة بأرواحهم.

بعد أن ظهرت معالم الهزيمة السريعة بجيش الحاكم 'زين العابدين خان'، وانتشرت جثث القتلى في أنحاء المعسكر وعلا صراخ الجرحى وتشتت أكثرية الجنود على مسافات بعيدة. قرر المهاجمون الانسحاب حاملين معهم ثلاثة من قتلاهم، قاموا بدفنهم حال عودتهم داخل أسوار القلعة في ركن بعيد منها.

كانت خسارة هذه المعركة، ذات أثر كبير في نفوس أعداء وحيد، وضعت الحاكم في موقف مخجل أمام جنوده وضباطه، فراح يصبّ جام غضبه على أخيه قائد قواته.

لم تأخذ أخبار هذه الهزيمة، وقتاً طويلاً حتى وصلت الى الأمير 'فيروز نصرة الدولة' حاكم مدينة شيراز والمسؤول الأعلى عن مدينة نيريز، فقرر بسرعة إرسال مندوب عنه الى وحيد يطلب منه الكف عن القتال ومغادرة نيريز للسكن في أي مدينة أخرى تهدئةً للمواقف وحقناً للدماء. لكنه.. في نفس الوقت، أرسل أمراً آخر واضح العبارات والمعاني الى حاكم المدينة، يأمره بحتمية تجهيز قوة كبيرة لاستئصال شأفة من احتلوا قلعة خواجه وإبادة جميع من فيها.

بوصول رسالة فيروز، قرر 'زين العابدين'، إرسال المندوب حال وصوله لملاقات وحيد كي يعلمه برغبة الأمير بضرورة إخلاء القلعة ومغادرة المدينة في أسرع وقت، ووعد بعدم ملاحقته ورجاله أو القبض عليهم إذا نفذ الأمر، وأكد على المندوب التشديد على توضيح خطورة الموقف وضرورة حقن

الدماء، حيث لا يمكن للطرفين تحمل مزيداً من المواجهات والخسائر بينهما، آملاً بإطفاء الهياج والتوتر الذي ساد المدينة، وعودة الأمن والاستقرار اليها.

عندما وصل المندوب وقابل وحيد وشرح له ما جاء من أجله وأطلعه على رغبة الأمير في وقف النزاع؛ أجابه وحيد: أخبر الأمير فيروز، إننا لم نكن البادئين بالقتال، وأننا لم نثر أية فوضى أو منازعات. لكن حاكم المدينة واجهنا بالعداء الشديد وهيّج الأهالي ضدنا، وجهّز جيشاً كبيراً لمهاجمتنا، وبدأ باطلاق النار علينا وقطع مياه الشرب عن القلعة. كما أرجو أن تخبره باستعدادي ومن معي لمغادرة المكان والمدينة. لكن.. عليه أن يعلم أيضاً، أن 'زين العابدين' رجل مخادع يقول شيئاً ويفعل شيء آخر، وهو لا يكف عن تحريض الأهالي ضدي وضد أتباعي وتشجيعهم على إطلاق النار علينا. وإذا استمر في حصارنا على هذه الحال ولم يسمح بمغادرتنا، فلا يوجد أمامنا سبيل للخلاص سوى الدفاع عن أنفسنا. وكما تشاهد هذين الصبيين، فهما من أولادي، ومن يضمر الشر ويبتغي القتال والحرب لا يحضر أولاده الصغار معه.

بإنتهاء المحادثات، عاد الرسول الى قصر الحاكم ليخبره بما دار بينه وبين وحيد، وأعلمه أنه سيتوجه الى شيراز ليطلع الأمير بمجريات الأمور وينقل له مجمل ما دار بينه وبين قائد قلعة خواجه. ثم جهز حاله وعاد أدراجه مع الوفد المرافق له الى شيراز.

بعد مرور عدة أيام من التفكير والتداول بينه وبين ضباطه، وعند عدم ظهور أية بوادر من المحاصرين لهجر القلعة، وبعد مشاهدة توافد مزيد من الفرسان لمساندة وحيد، عاد الحاكم يأمر باطلاق النار على المحاصرين مرة أخرى، وأمر بقتل كل من يتجرأ الاقتراب منها، كما أمر أخيه بتحشيد مزيد من القوات، إضافة الى رجال من أهالي المدينة ممن يستطيعون حمل السلاح لشن هجوم على القلعة.

أما وحيد، ولأنه لم يكن يعلم بفحوى رسالة الأمير فيروز السرية وما ورد فيها من أوامر الى حاكم نيريز بسرعة القضاء على المحاصرين وضرورة مهاجمتهم واستئصال شأفتهم. لذلك بقي لعدة أيام الماضية، ينتظر جواب رسالته

التي أرسلها الى الأمير مع الوفد، آملاً أن يكون الأمير حكيما بما فيه الكفاية ويأمر بوقف استعدادات الجيش وانسحابه.

لكنه أدرك لاحقاً، وبعد مشاهدته من فوق أسوار القلعة حركة الجند واستعداداتهم

تجري على قدم وساق، تأكد أن هناك هجوماً قادماً لا محالة، خاصة عندما كانت الأخبار تصله تباعاً في كل ساعة بتوافد مزيد من القوات وتشكيلات الجنود الى المعسكر واتخاذهم مواقع قتالية حول محيط القلعة. ساعتها تأكد أنه لا فائدة ترجى من انتظار الرسالة الجوابية أكثر من ذلك.

لذلك قرر الاستعداد لشن هجوم مباغت جديد.

الفصل الرابع

المعركة الثـانية

ومرة أخرى.. قرر وحيد الاجتماع بقواته وإصدار أوامره لفرسانه بضرورة التجهيز والاستعداد للخروج ومهاجمة مواقع الجند وتشتيت شملهم. ومع أن غالبيتهم كانوا من الأهالي المدنيين ولا خبرة لهم بالقتال وركوب الخيل مثل رجال وفرسان قوات الجيش المدربة، إلا أنهم تقبلوا أوامره بكل سرور وشرعوا يمتطون صهوات جيادهم متجمعين بسرعة وهدوء خلف باب القلعة منتظرين إشارة البدء.

كان جيش الحاكم يتألف هذه المرة من فرق مدربة ومجاميع من فرسان القبائل الأشداء المشهورة بشراستها تدعمهم عدة مدافع، إضافة الى فصائل جديدة من الجنود المساقين للخدمة حديثاً. وبينما كانوا منشغلين بحفر الخنادق وتعبئة أكياس رمل السواتر وإقامة التحصينات متنكبين بنادقهم عازمين على عدم تكرار ما حدث في المرة السابقة. إلا أنهم كانوا غافلين عما يجري خلف أسوار القلعة من حركة واستعداد، ولم يخطر في خَلد أي ضابط منهم احتمال قيام المحاصرين بمهاجمتهم والإقدام على مثل هذه المجازفة المهلكة مرة ثانية، لكثرة أعدادهم وحجم قوتهم.

وفجأة.. فتحت بوابة القلعة مرة أخرى لتعلن عن حدث خطير جديد، إذ انطلق الفرسان من باطنها وعمائمهم وقلنسواتهم تتطاير في الهواء خلفهم، وقمصانهم منتفخة بالرياح تحاول اللحاق بهم وكأنهم عمالقة على صهوات جياد، وهم يصيحون ويكبرون بصوت واحد. وبمجرد أن طرقت سنابك خيولهم فضاءات الخلاء الخارجي، تفرقوا في اتجاهات متعددة ليشنوا هجومهم على المعسكر من كل ناحية ولتصل خيولهم بسرعة الرياح الى تخومه وكأنها تعرف دورها وأهميته.

ارتبك الجند وأصيبوا بالدهشة لهذا المشهد الفجائي ولهذه الجرأة والجسارة غير المتوقعة، ومع ذلك أسرع فرسانهم ليركبوا خيولهم وينطلقون حاملين سيوفهم وبنادقهم لاستقبال زمر المهاجمين وأمواجهم المتوالية. أما مشاة الجيش من حملة البنادق، فتقافزوا ليتمترسوا خلف سواترهم في محاولة لاستعادة رباط

جأشهم وصد المهاجمين وإمطارهم بطلقات الرصاص. ورغم كثرة النيران وغزارتها وسقوط قتلى ومصابين من المهاجمين الفرسان ومن خيولهم ولمّا يصلوا أرض المعسكر بعد، إلا أنهم تمكنوا من دخول المعسكر بسرعة خاطفة ومن جهات مختلفة وراحوا يشتبكون في قتال عنيف مع المقاومين، وترجل البعض منهم لمعالجة موقف صعب أو بسبب مقتل جواده. أما الجند، فقد دهشوا وهم يشاهدون شجاعة هؤلاء الفتية وهم يخترقون صفوف المتاريس والسواتر دون خوف ولا وجل؛ واستمر القتال والتصارع على هذا المنوال العنيف قرابة الساعتين، حتى مالت الكفة الى المهاجمين وبانت علامات النصر تلوح ألويتها بعد نزالات عنيفة وقتال دامي في كل أنحاء المعسكر.

أخيراً.. أدرك ضباط الجيش أنه لا فائدة ترجى من المقاومة، وإذا استمر الوضع على هذا الحال، فالخسائر بالأرواح لا يمكن تحملها، إضافة الى أنه لا تبدو على المهاجمين أية علامات تعب أو إرهاق ولا نية ظاهرة لهم بالتراجع أو الانسحاب، وبدا واضحاً عقدهم العزم على النزال والعراك حتى النهاية، فها هم ما زالوا يتقافزون بخيولهم مثل الفهود ويكرّوا مهاجمة حشود الجند رغم سقوط العديد منهم ممزقين بالحراب.

كان قائد الجيش الإيراني يتنقل بمنظاره متفحصاً أرجاء ساحة المعركة ولم تفلت عن ناظره ميلان الكفة لصالح خصومه؛ لكنه تمهل في إصدار أمر الإنسحاب، أملاً بحدوث معجزة مفاجئة قد تقلب موازين المعركة رغم ما شاهده من حجم الخسائر. وعندما أدرك وضباطه أنه لا جدوى من المقاومة، وأن صد هجوم هؤلاء الفدائيين عسير على جموع الجند، رضخ لواقع الأمر وأصدر أمره لنافخ البوق بإطلاق نفير التراجع والانسحاب.

وهذا ما زاد الطين بلّة، إذ أربك صوت النفير كثيراً من الجند وهم في جوف معمعة المنازلة والاشتباك بالأيدي والسلاح الأبيض، وتعسّر عليهم تدبير أمر تراجعهم، ومنهم من لم ينتبه لصوت البوق وبقي منشغلاً بما هو فيه، بينما تمكن عدد منهم، التملّص من قبضة المهاجمين وتراكضوا ليبتعدوا مسافات كافية تخلصاً من ملاحقيهم، وصاروا يقتحمون أبواب بيوت الأهالي طالبين اللجوء للتخفي والاختباء داخلها، أما من تباطأ منهم، فطالته حدود السيوف وذاق طعم نصال الخناجر.

وهكذا راح أوار المعركة يهدأ ولاح انتصار أصحاب وحيد الساحق، وراحت صيحات الفرح والابتهاج تنطلق لتملأ ساحة المعركة وجوانبها، وهذا ما زاد من غيظ الحاكم وحنقه، ففقد زمام أعصابه وأصابه الارتباك وراح يهذي بكلام غير واضح ولا مفهوم، ويزبد ويرعد وينزل الشتائم على أخيه 'محمد علي خان' قائد قواته الذي تأخر في العودة الى مقر القيادة، وكلما مضت بضع دقائق، أرسل ضابطاً للبحث عنه.

مضى الوقت ولا أثر لأخيه أو لأولاده الضباط. وأخيراً دخل أحد الضباط وهو مكتئب وفي حالة مزرية بزيّ مهلهل ممزق تعلوه بقع الدماء يحمل خبر مقتل قائد الجيش وأسر ولديه. وهذا ما أكد للحاكم خسارة المعركة وختم ذيلها.

وفي محاولة منه للمحافظة على ما تبقى من قواته، أمر 'زين العابدين' بتكملة انسحاب القوات والتوجه بعيداً الى قرية قصيّة نائية. فبدأ الجنود يتحركون ببطء حاملين جرحاهم يجرّون أذيال الفشل والخسارة.

كانت ضربة قاسية للحاكم وجيشه ومن سانده من أهل مدينته، أربكت كيانه وشتتت أفكاره وشلت تفكيره ووضعته في موقف خطير محرج هدد مستقبله ومركزه الإداري؛ فمقتل أخيه قائد قواته وأسر ولديه وانكسار الجيش وانسحابه إضافة لفرار عدد منهم وضخامة أعداد القتلى والمصابين ثم انسحابه من المدينة وقلعتها وما سيسببه ذلك من إبتعاد عن موقع الأحداث واحتمال غضب الأمير فيروز ومعاقبته؛ كل ذلك بدا وكأنه خراب لا يمكن إصلاحه. وما زاد الوضع سوءاً، ظهور بوادر حركة تململ بين أفراد الجيش وتسجيل حالات هروب بين صفوف المجندين وانسحاب بعض رجال الأهالي.

أما ما توّج مشاعر الهزيمة ومهانة الإذلال، فهو عدم قدرته على استيعاب ما حصل من موت ودمار وخسائر على أيدي بضعة عشرات من الأهالي غير المدربين غالبيتهم من الطلاب والرعاة والمزارعين والكسبة من الذين لم يكن يعير لهم أهمية ولا يحسب لهم حساب، وتصور مخطئاً أنه سينهي أثرهم ويقضي عليهم في بضع ساعات.

وراحت تتلاطم أمواج المشاكل والصعاب في وجهه وتزداد سوءاً، حيث بدأ العسكر يطالبون بوجبات الطعام والمؤونة وأدوات الطهي ومستلزمات

المبيت والخيام بعدما دمرت أو أحرقت جميعها في أرض المعركة، إضافة لحاجتهم الى مواد الاسعافات الأولية والأدوية والأطباء. وهذا ما زاد من تخبطه وحنقه وغضبه وفورة أعصابه والتقليل من ثقته بمن يحيطون به.

مضت عدة أيام دون أن يغمض له جفن، فآثار الكارثة تقض مضجعه. وأخيراً قرر تحرير خطاب للأمير فيروز يشرح فيه خطورة الموقف وتأزمه، ويتذرع بتوافه الأسباب والحجج لتبرير خسارة جيشه، وبالغ في تجسيد ما واجه من أشكال المصاعب وأنواعها مختلقاً شتى الأسباب والأعذار الواهية. كما راح يشيد مدلساً بشجاعة جنده واستبسالهم في صدّ أمواج جموع المهاجمين التي لم تكن تبدو لها نهاية، وضخّم من أعداد قتلى المهاجمين وجرحاهم، وتفنن في تخفيف هول خسارته. ثم شدد على ضرورة إمداده بمزيد من التعزيزات وطالب بإرسال فيلق كبير من الخيالة وفرسان القبائل وعدد كاف من المدافع لهدم قلعة خواجه على رؤوس محتليها المتحصنين داخلها.

الفصل الخامس

ترتيبات لمعركة جديدة

عندما نقلت العيون بعد عدة أيام، أخبار ما يجريه الجيش الايراني من استعدادات لمعاودة ترتيب صفوفهم؛ كان أصحاب القلعة منشغلون بتقوية دفاعاتها ورفع مستويات أسوارها وأبراجها وتركيب خزان مياه كبير في داخلها والاستفادة مما غنموا من أسلحة الجند وخيامهم ونصبها في باحة القلعة وخارج أسوارها.

أما وحيد فكان منشغلاً بتوزيع المهام والواجبات على أتباعه، مدركاً أن لا سبيل هناك لمغادرة القلعة، ولزوم الاستعداد لفترة حصار قاسية قد تدوم طويلا والى أهمية ترتيب الأوضاع لمواجهة قادم الأيام وأحداثها. فعيّن بواباً للقلعة وأمينًا للأموال وكاتباً وقارئاً لمجريات الوقائع وسجاناً وصاحباً للسجل، كما عين 'غلام رضا اليزدي' قائداً للقوات.

بقيت مراجل الغل والبغضاء تغلي في صدر حاكم نيريز، عاقداً العزم على ضرورة إعادة جيشه الى مواقعه الأولى في ضواحي المدينة بعدما انسحب منها، والى أهمية ترتيب الاستعدادات للهجوم واحتلال القلعة وإبادة من فيها. فجمع من الرجال والسلاح ما فاق المرات السابقة، وبدأ يعدهم ويدربهم لتهيئة جاهزيتهم، منتظراً في الوقت نفسه وصول المساعدات من شيراز.

ولمّا مرت عدة أيام ولم تصله رسالة فيروز الجوابية ولا أثر للامدادات، أدرك ما غفل عنه في رسالته الأولى. فقرر كتابة ثانية، عززها بكمية من النقود الذهبية كهدية شخصية للأمير، ثم نادى أحد أصحابه الموثوق بهم، وكان رجلاً شجاعا لبق اللسان، ليسلّمه الخطاب مختوماً مع مبلغ المال، وأمر له بجواده الخاص وطلب منه التوجه الى شيراز لتسليم الرسالة والمبلغ الى الأمير فيروز شخصياً وباليد.

ما كاد الملا باقر يكمل صلاة الفجر، حتى انطلق حاملاً أمانة الحاكم ورسالته عبر طريق جانبي مهجور لتفادي لقاء أي شخص يعرفه حفاظاً على ما معه؛ وبعد مسيرة يوم كامل، وصل إلى منطقة مفتوحة تتوسطها قلعة قديمة

نصبت بعض القبائل الرحّل خيامهم بقربها. فقرر المبيت عندهم وتكملة رحلته فجر اليوم التالي. فتقدم لينادي على صاحب إحدى الخيام يطلب استضافته.

وبينما هو جالس يتناول طعام العشاء ويتبادل أطراف الحديث مع مضيفه، إذا بأحد أصحاب وحيد يمر بالمكان، وكان قد استأذن سيده ليذهب إلى قريته في مأمورية عاجلة ثم يعود في أسرع وقت. وعندما وقع نظره على ذلك الحصان الأصيل، وشاهد سرجه الجلدي المطعّم بقطع الفضة، انتابه التعجب لوجود مثل هذا الجواد الرائع أمام خيمة غجرية بالية، فراح يدور حول الحصان يتفحصه، فأدرك أنه لابد أن يكون لشخص يعرفه من علية القوم. فدفعه الفضول للتقرب من الخيمة والمناداة على صاحبها ليسأله عن مالك الحصان، إذ خشي أن يكون مسروقاً. لكن الراعي أخبره بوجود صاحب الجواد داخل خيمته.

تقرّب السيد اسماعيل نحو الخيمة وألقى التحية ثم تعرّف على مالك الحصان، وما أن علم إن الحصان تعود ملكيته لحاكم نيريز، وأنه محدثه حضر لتوه من المدينة وهو في طريقه الى شيراز فجر اليوم التالي، وسمع بتفاصيل مهمته وهدفها؛ ما كان منه، إلا أن نهض فجأة، وأسرع يمتطي الحصان ويشهر سيفه، آمراً صاحب الخيمة بشد وثاق ضيفه وتسليمه ليده.

إرتعب الراعي لانقلاب هدوء خيمته الى هذه الحالة المتوترة حالما شاهد شجاعة الفارس وسمع نبرة صوته الحاسمة؛ فأسرع يتناول حبل ليشدّ وثاق ضيفه على عجل ويسلّم طرفه الى يد الفارس. فما كان من السيد اسماعيل إلا أن همز جواده وسحب أسيره عائدا به الى نيريز؛ وعندما وصل الى قرية قريبة، سلّمه الى عمدتها ـ وكان من أصدقاءه ـ مؤكداً عليه سوق الأسير الى قلعة خواجه وتسليمه للسيد وحيد.

بوصول الأسير واكتشاف أسرار مهمته، زادت ثقة وحيد بحقيقة نوايا الحاكم الغادرة واتضحت خططه المبيّتة، وظهر جلياً كذبه وتدليسه في كل ما إدعاه من حسن النوايا والرغبة في وقف الصدامات والسماح لوحيد ورجاله بمغادرة القلعة وذهابهم الى حال سبيلهم. أما المبعوث، فكان مصيره الموت بعدما بدأ يشتم من يحيطون به.

عندما علم الحاكم بفشل خطته في طلب المعونة وما جرى لمبعوثة، لم يثنه ذلك عن تكرار المحاولة وطلب النجدة مرة أخرى، وعاد يكتب رسالة ثالثة، شرح فيها مجريات المعارك والأحداث وما آل اليه مصير رسوله، وتوسل الى الأمير مضاعفة مجهوداته للاسراع في إبادة هؤلاء المتمردين الأشرار، فهم يعرضون هيبة المملكة الفارسية لخطر انتشار العصيان والتمرد. وفي هذه المرة أرفقها بكثير من الهدايا والأموال وسلّمها الى مجموعة من الفرسان الأقوياء المدججين بالسلاح، زيادة في التأكد من ضمان وصولها.

ولم يكتف بهذه الرسالة فقط، بل كتب أخرى ملأها بالإفتراءات والأكاذيب الى رجال الدين في شيراز، لعلمه بمدى حقدهم على ابن بلدتهم 'الباب'، لما سببته دعوته من معارك طويلة دامية أنهكت موارد البلاد المالية والعسكرية وفناء خلق كثير بسببها، ولم يغفل تشويه مقاصد وحيد وحقيقة أهدافه مسهباً في ذكر أعماله التخريبية والاجرامية، وتوسل اليهم التوسط لدى الأمير للاستعجال في إرسال التعزيزات.

وصل وفد 'زين العابدين' الى شيراز وقدمت الرسالة الى الأمير، في الوقت الذي كانت الرسالة الثانية قد أخذت طريقها الى أيدي رجال الدين؛ فتحرك في الحال وفد كبير منهم الى مقر الأمير مندفعين بحقدهم تجاه جماعة 'الباب' التي احتاروا في كيفية وأدها وإطفاء لهيبها والتخلص منها؛ فوجدو الأمير يتشاور مع مجموعة من معاونيه بذات الخصوص، فما كان منهم إلا أن راحوا يزيدون نيران الأحقاد والتعصب عوداً وحطباً ويشجعونه على اتخاذ التدابير السريعة الحاسمة لإطفاء وهج هذه الفتنة التي أشعلها شاب مدينتهم.

وافق الأمير على طلب حاكم نيريز ورجال دين مدينته، وأصدر تعليماته الى 'شجاع الملك' للقيام فوراً بتجهيز قوات عسكرية كافية للذهاب بهم الى نيريز لمحاربة وحيد وأصحابه، وأمره أن يصطحب معه بعض الأفواج من خيرة الجنود المدربين وعدداً من كبار الضباط وما يراه كافيا من المدافع والهاونات وطواقمها. وفي نفس الوقت، كتب رسالة مستعجلة لحاكم نيريز، يأمره بتجنيد كل رجل قادر على حمل السلاح في مدينته والقرى المجاورة لها استعدادا لوصول قوات شيراز للمشاركة معها.

انتشرت الأخبار بين أهالي شيراز حتى وصلت الى العديد من أتباع 'السيد الباب'، فقرر عدد منهم على الفور اسراع السفر الى نيريز وإعلام وحيد بنتائج هذا الاجتماع الخطير وتحذيره مما يُعد ويهيأ له من قوات وسلاح ومعدات وحتمية تحركها ووصولها الى نيريز في القريب العاجل.

في هذه الأثناء، بدأت عوائل المحاصرين التي سبق وافترقت عن رجالها تتوافد من قراها ومناطقها البعيدة الى القلعة ومحيطها للاطمئان على حياة رجالها، بعدما وصلتهم أخبار المعارك والمواجهات العنيفة بينهم وبين قوات الحكومة. فحاولت النساء بشتى السبل لقاء أزواجهن وملاقاة آبائهن وأولادهن، ونجحن بذلك وتمكّنّ من دخول القلعة والانضمام الى المدافعين، مما ضاعف العدد كثيرا ودبّ فيهم روح حماسية جديدة وحركة فاعلة ونشاط دؤوب حوّل القلعة وقلبها الى خلية نحل نشطة. فبدأوا بترتيب أمور إقامتهم وعيشهم مشاركين في حفر الخنادق وترتيب السواتر وبناء الملاجيء والمساكن والغرف لاستيعاب الواصلين الجدد.

الفصل السادس

حفر خندق

بقي وحيد يفكر في سلامة المحاصرين وفي كيفية مواجهة ما يتوقع وصوله من قوات الحكومة الضخمة وصد خطر هجومها. وبعد تأمل وتفكير طويلين، تفتّق ذهنه عن فكرة عجيبة، ظنَّ في بادئ الأمر، استحالة تطبيقها بسبب حاجتها الى مجهود وعمل جبارين لا طاقة لأتباعه بتنفيذها.

ومع ذلك، قرر تجربة عرضها على بساط البحث للتداول والمشورة. وبمجرد أن اجتمع الأتباع في غرفة قيادته وسمعوا ما يشير اليه، حتى أعلنوا جميعهم الترحيب بها، وهبّ كلا منهم ليحمل ما يستعين به على تنفيذ دوره.

كانت الفكرة تقضي بحفر خندق دائري عميق حول القلعة.

وهكذا هبّت الجموع وامتدت الأيدي وتراكضت الأقدام وسارع الجميع يشاركون في حفر الأرض حول الأسوار بكل ما طالته أيديهم من أدوات، حتى استعمل بعضهم سيوفهم وخناجرهم. فكانت مصاعب نقل الأتربة والأحجار والحصى والصخور تزداد كلما إزداد عمق الخندق.

وبينما الجميع منشغل في العمل، والأتربة تعلو عمائمهم وقلنسواتهم وملابسهم، إذا بهم يفكرون الاستفادة مما يستخرجوه من الأتربة والحصى بوضعه على حافة الخندق المحاذية لأسوار القلعة. وبذلك، كلما كان الخندق يزداد عمقاً، كانت تلة الأتربة والأحجار تزداد ارتفاعاً لتمتد وتحيط بالقلعة وتحجب رؤوس العاملين عن الرؤية إلا لمن وقف فوق أسطح منازل المدينة وعلى أسوار قلاعها.

ولم يثن عزم الرجال والنساء ما كان يبذلونه من جهد ويلاقونه من تعب وإرهاق وسهر، واستمروا بالحفر والنقل ليل نهار وسط تشجيع حماسي وشدّ أزر متناهي. وكانت النسوة سبّاقات في مشاركتهن لمعاونة رجالهن، وتهافت الأطفال لمد يد المساعدة أيضاً، رغم ما كان يمر فوق رؤوسهم من أزيز الرصاص.

وهكذا اكتملت حلقة الخندق وعمَّ الجميع فرح وابتهاج ووصلت أصوات تكبيراتهم الى مسامع الجنود داخل معسكرهم.

تناسب وقت اكتمال عملية حفر الخندق مع وصول قوات الجيوش من شيراز ومرابطتها حولهم. فإذا بأصحاب وحيد يجدون أنفسهم وهم محاصرون بكتائب كبيرة من الضباط والجنود لا عدّ ولا حصر لها، ونصبت المدافع لتحيط بهم وصوبت عليهم فوهاتها من جميع الجهات. ومع ذلك، لم يوهن هذا المنظر المهيب عزم أحد بينهم، بل كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، كلما أطلق عليهم سيلاً من القنابل وطلقات الرصاص، وهذا ما كان يزيد حنق أفراد الجيوش فيزيدون من قصفهم. وأصابت رصاصة أحد الرجال وجرحته، وهدمت إحدى الدانات جزءاً جانبياً من جدار، وتلقى برجاً فوق البوابة إصابة مباشرة. إلا أنه سرعان ما هرع الجميع لاعادة كل شيء الى مكانه وسابق عهده.

كانت أكثر دانات المدافع وقنابلها طائشة التصويب والتنشين، وكأن طواقمها الذين تتعالى أصوات ضحكاتهم يتسلون أو يتدربون على إطلاقها، وبقي أكثرها يتساقط في أماكن غير مؤثرة. أما طلقات الرصاص فلم تكن تصيب أحداً إلا ما ندر. ومع ذلك، بقيت مصدر خطر حقيقي على الجميع وخاصة النساء والأطفال، وهذا ما دعى بأحد مهرة الرماة بعد نفاد صبره الى تسلق أحد البروج وتصويب بندقيته على آمر أطقم المدفعية، فأطلق عليه في اللحظة المناسبة رصاصة واحدة أسقطته مجندلاً يتخبط بدمه، وحالما شاهد الجنود ما حصل لقائدهم، توقفوا على الفور ولاذ كل منهم يلتجئ الى خندق قريب ليحتمي داخله. ففصلت هذه الرصاصة الفارقة بين صخب إطلاق النار وضحكات الجند، وبين ليلة مرت هادئة حتى الصباح.

عندما أشرقت شمس صباح اليوم التالي، كان لدى الطرفان ما يشغلهما من أعمال كثيرة، فالجميع قائم على تكملة ترتيب السواتر والمتاريس وحفر الخنادق وتوجيه المدافع، بينما أصوات التعليمات والأوامر تتعالى هنا وهناك.

وهكذا انقضى اليوم بطوله دون مواجهات تذكر، إلا من بعض المناوشات الخفيفة.

الفصل السابع

الملحمة الفاصلة

مرة أخرى.. وبعد وقت العصر بقليل والسماء ملبدة بالغيوم والمطر ينزل غزيراً وصوت الرعود يجفل الخيول ويخيف الأطفال؛ استدعى وحيد الى غرفته البسيطة ‘غلام رضا’ قائد قواته، ليوضح له خطورة ترك جيوش الدولة يكملون استعداداتهم وجاهزيتهم دون اعتراض؛ وشرح له ضرورة مباغتتهم والهجوم عليهم من جديد وتخريب ما يمكن تخريبه وعلى الخصوص مدافعهم التي تنتشر حول القلعة، وأكد له ضرورة تجميع عدد من الرجال الأشداء لتنفيذ هذه المهمة الخطرة.

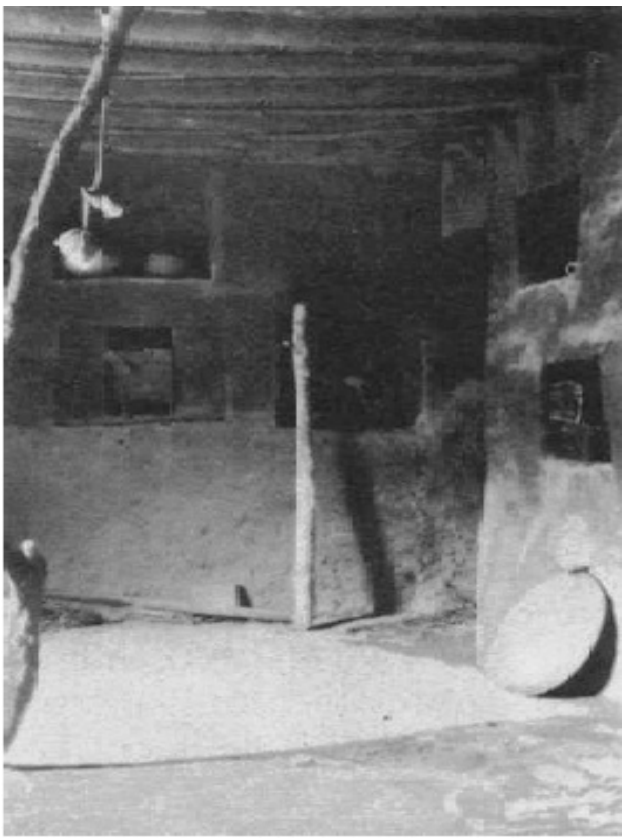

غرفة قيادة الشيخ وحيد في داخل قلعة خواجه

أطرق 'غلام رضا' رأسه قليلا وهو ينظر الى الأوحال التي تغطي قدميه حتى ركبتيه، ثم استأذن وخرج لبعض الوقت، عاد بعدها بقليل وبرفقته مجموعة كبيرة من الرجال والشباب غصّت بهم أرجاء غرفة قائدهم الصغيرة. فاستقبلهم وحيد بوجهه البشوش باسماً باسم مرحباً وطلب منهم الجلوس، ثم بدأ يشرح لهم حساسية الموقف وخطورته ويشجعهم على ضرورة مرافقة قائدهم 'غلام رضا' لمهاجمة استحكامات الجيوش المحيطة بهم وتخريب مدافعهم ومتاريسهم كما في المرة السابقة، وأوصاهم بالحذر الشديد وضرورة إطاعة أوامر القائد وتوجيهاته على أرض المعركة وأهمية الهجوم بمجموعات صغيرة من إتجاهات مختلفة للمحافظة على حياتهم والتقليل من خسائر الأرواح، ولم ينس توصيتهم بتدمير مركز قيادة الجيش في وسط المعسكر حيث تستقر خيمة القائد.

كانت السماء في بداية تلك الليلة ملبدة بالغيوم الكثيفة الداكنة وأصوات الرعود تصمّ الآذان وبريقها ينير الآفاق بين الفينة الأخرى؛ أما سيول الأمطار، فكانت تزحف سريعاً في كل إتجاه لتحول تراب الأرض الى طين ووحول تنغمس فيها الأقدام وحوافر الخيل.

أما في معسكر الجيش.. فلقد تجمع الجنود داخل خيامهم الدافئة يستريحون من أعمال الحفر الشاقة وترتيب المواقع الدفاعية متقين شدة البرد ويتبادلون أطراف الحديث ويرتشفون أكواب الشاي وتدخين السجائر، ومنهم من جلسوا في حلقات يلعبون الورق أو النرد ويتضاحكون، منخدعين بهدوء اليومين الماضيين وسكونهما وخلوّهما من المعارك والاشتباكات لظنهم بعدم ملائمة طقس الليلة للفعاليات العسكرية بسبب كثرة ما يهطل من غزير الأمطار وانتشار السيول والأوحال، إلا أنهم ما زالوا بكامل ملابس العسكرية وأسلحتهم ترتكن على مقربة منهم وفي متناول أيديهم.

بالعودة الى الجهة المقابلة، كان الأمر على خلاف ذلك، حيث جرت الاستعدادات بكل همّة ونشاط بين شجعان القلعة وتجمعوا بهدوء خلف بوابتها وكل ممسك بلجام حصانه يداعبه ويهمس في أذنه يلاطفه ويبدي له محبته، وبنادقهم تتدلى على أكتافهم وسيوفهم مشبّكة في وسط أحزمتهم والحماسة تملأ صدورهم والحزم الصارم يرتسم على وجوههم مدركين حجم خطورة تنفيذ خطتهم، ففي هذه المرة سيقابلون جيوشاً لم يعهدوها من قبل.

راح الفرسان يمتطون صهوات خيولهم بتمهل وهم يمسدّون رقابها بحنان محاولين طمأنتها وعدم إثارتها. وما أن أخبرهم قائدهم بأزوف موعد الهجوم، حتى فتحت البوابة وكبّر ومن معه بصوت واحد لعدة مرات ثم انطلقوا كالعاصفة الهوجاء وحوافر خيول السابقين منهم ترشق وجوه وصدور اللاحقين بكتل الطين وحبيباته، لتزين وجوههم وملابسهم بنياشين الشجاعة والإقدام، يتقدمهم قائدهم وهو يهز سيفه اللامع في الهواء بكل خفة ورشاقة.

لكن الأمر لم يكن كما هو متوقع، إذ لم يباغت الهجوم قوات الجيش هذه المرة، حيث اتضح أن الجيش كان على علم مسبق بموعد الهجوم وساعته واتخذ بدوره كافة الاحتياطات اللازمة لمفاجئة المهاجمين إذا ما فكروا في استغلال رداءة الطقس. لذلك أعد مجموعة الضباط متاريس معبأة بالسلاح والرجال وهم على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ.

لم يكد المهاجمون يقطعون نصف المسافة في ذلك الجوّ الممطر، حتى علت أصوات الضباط في أرجاء المعسكر تصدر الأوامر لكمائن الجنود والمدفعية بالانتباه والاستعداد لاطلاق النار، فأسرع العسكر يتراكضون ليتخذ كل منهم موقعه خلف السواتر والمرابض، وبدأوا يمطرون المهاجمين بوابل من القنابل وزخات الرصاص. ونتيجة لذلك، سقط عدد من المهاجمين ولمّا يصلوا متاريس أعداءهم بعد، وبقيت أصوات المدافع تتعالى من كل الجهات، فجفلت الخيل وهلعت وأصيب عدد منها واستدار بعضها ليسقط فرسانها عن ظهورها ويسحقهم. لكن ذلك لم يؤثر في تقدم بقية المهاجمين أو يقلل من سرعة اندفاعهم. فرغم شدة الظلام وغزارة الأمطار، إلا أن نيران مشاعل المعسكر ساعدت في تحديد مواقع الجند وأماكن مدفعيتهم. وبسرعة الشهب بدأ المهاجمون يخترقون صفوف الجند ويتقافزون بين جموعهم وصراخ التقاتل والعراك يرتفع في كل ناحية، بينما سيوف المتقاتلين تتلامع وهي ترتفع تحت شعاع أنوار المشاعل ثم تعود ليختفي بريقها تحت طبقات ألوان الدماء القانية. واستمر المهاجمون يتنقلون من متراس الى آخر ومن خندق الى غيره والجنود يقاومون ويقاتلون بكل شجاعة وبسالة، فكانت الكفّة مرة تميل في أحد جوانب المعركة الى هؤلاء، ومرة تنكفئ عند مجموعة أخرى فتلاحقهم السيوف والحراب تحصدهم حصداً؛

أما الخيول، فلم يكن نصيبها أفضل من فرسانها، فمنها ما قتل وجرح ومنها ما تبعثرت أشلائها لتعيق حركة المقاتلين من الطرفين.

وبينما الجميع على هذه الحال العصيبة من الصراع المحتدم والاشتباكات العنيفة، إذا بمجموعة جديدة من قوات جيش الاحتياط تظهر من بين أزقة المدينة لتنضم مسرعة الى ساحة المعركة وتهاجم المقتحمين بكل شدة وعنف، فانكسر جانب الأصحاب وتراجعوا ليرصّوا صفوفهم ويتكاتفوا داخل معسكر أعداءهم وليقاتلوا على جانبين مختلفين متقابلين مما زاد في إصرارهم وبأسهم، فكانت فرصة سانحة للقضاء عليهم وإبادتهم. لكنهم عادوا يندفعون لإختراق صفوف المحيطين بهم ويهجمون نحو نصال حراب السيوف والبنادق غير مبالين بما يطلق عليهم من وابل الرصاص وما يشهر في وجوههم من السيوف والحراب حتى أدهشوا ببسالتهم وجرأتهم ضباط الأعداء ورؤسائهم الذين كانوا يراقبون سير جوانب المعركة بمناظيرهم المبتلة من أعلى تلة قريبة تخضع لحراسة مشددة.

كان الأصحاب قد عقدوا العزم بعدم التراجع حتى تحقيق هدف الهجوم، وكلما اشتد القتال، كانت تظهر من الطرفين شجاعة وبسالة نادرة، وظهرت بين الصفوف تكتلات متراصة للجند ومثلها للمهاجمين، وكلاً منهم يحمي ظهر صاحبه، وراح الشجعان والبواسل يتساقطون مضرجين بدمائهم وامتلأ المكان بأنين الجرحى وصراخ المصابين، ومما زاد في ربكة المعركة وفوضاها وأطال أمدها، ظلام ساحتها وارتفاع مستوى المياه والوحول بين جنباتها وكثرة حفر الأرض وعمق نقرها وما انتشر عليها من أخشاب وأعواد وأدوات العسكر المبعثرة. أما الأهالي المناصرين لجند الحكومة، فكانوا يتراكضون في كل مكان يساعدون الجند بكل قواهم، وهم يرتدون زيّاً شعبياً لأهالي المنطقة، مشابهاً لزي المهاجمين ويتسمّون ـ على العموم ـ بأسماء متشابهة، مما أوجد صعوبة في التمييز بينهم وبين المهاجمين خاصة في ساعات الإلتحام القريب. واستمرت المعركة على هذه الحال طوال ساعات الليل بين كرّ وفرّ وغالب ومغلوب حتى أخذ التعب والارهاق كل مأخذ من جميع المتقاتلين.

وبينما بدأت أنوار فجر الصباح تنير أرض المعركة قليلاً، إذا بمجاميع جديدة من الفرسان تخرج من القلاع البعيدة عند الأفق لتتجمع في تكتلات كبيرة

وتنطلق متوجهة نحو ساحة الوغى وهي تكبّر بأعلى صوتها، فأدرك الضباط أنهم من أنصار جماعة وحيد، وهذا ما دفعهم الى إصدار الأوامر لجنودهم بتحويل فوهات المدافع نحو تلك النواحي في محاولة لوقف تقدمهم. لكن منظر ذلك السيل الجارف كان سبباً في تثبيط عزيمة بعض الجنود والأهالي وبثّ مشاعر الاحباط في نفوسهم، فراحوا يلتفتون يميناً وشمالاً يتلمسون طريقاً للهرب وسبيلاً للنجاة، بينما أثار منظر المدد القادم حماسة كبيرة في قلوب المهاجمين وعادوا يقاتلون وكأنهم يبدأون المعركة من جديد.

في هذا الوقت، كان ضابط آخر يصدر أوامره بتوجيه مدفعيته نحو أسراب مجموعة مهاجمة أخرى انطلقت تتعقب الأولى لصدهم وتشتيت شملهم، ونجح في إصابة العديد منهم، لكن تلك الأسراب الطائرة بقيت تسابق الريح وتطلق نيران بنادقها وهم ما زالوا على صهوات جيادهم؛ وما هي إلا دقائق حتى كانوا وسط المعمعة مع رفاقهم يتقافزون بين الاستحكامات والخنادق وينتشرون في كل مكان منها، بينما غاص كثير منهم في قيعان الخنادق وسط الأوحال والطين لا يسمع منهم إلا صوت الصراخ والأنين والتوسل الى الجنود والمقاتلين.

وهكذا حصلت مقتلة عظيمة أفنت المئات من المقاتلين الشجعان. ومع أن الوضع قد انقلب مرة أخرى، وحوصر الجنود بين كماشتين، إلا أنهم اظهروا بطولة نادرة وشجاعة متفانية أعاقت إحراز نصر نهائي لكلا الطرفين، وما أطال أمد المعركة وزاد من حدة أجيجها، استمرار وصول النجدات لكلا الطرفين من القرى المحيطة بنيريز ومن داخلها.

كان المهاجمون من أهل القلعة، أكثر حظاً من المدافعين، بسبب سهولة تمييز أزياء العسكر ومقاتلة كل مدنيّ يقف الى جانبهم. فزادت هذه الحالة من ارتباك الجنود وإلتباسهم، واشتبه عليهم الأمر وقت التلاحم والتشابك بالأيدي والسلاح الأبيض، وصاروا بدورهم يقاتلون كل من يرتدي لباساً مدنياً، فلا وقت للسؤال والجواب؛ وكم من رجل قتل بسيوف صديقة أو نيران جماعته نتيجة الفوضى وعتمة الليل وغزارة الأمطار وكثافة الدخان.

في تلك الليلة الليلاء، سقط المئات من شجعان وبواسل الطرفين؛ وما زاد الطين بلّة، رطوبة الأرض وكثرة أوحالها وما سال فوقها أديمها من دماء غزيرة

اختلطت بسيول الأمطار، فلم يكن بالإمكان التفريق بين الجريح والقتيل إلا بالتحريك والسؤال، وكان الكل يسأل صاحبه ومن في قربه ليتأكد من حالته، وباشتداد المعارك وتواصل التلاحم، تُركت المدافع وأهملت مسؤوليتها بعدما خربت وأشعلت فيها النيران، إذ أصبحت مصدر خطر كبير لكل من يقف بجانبها، لسهولة استهدافه والتنشين عليه، وأستعيض عنها بالسيوف والخناجر والهراوات والأيدي العارية. كما أهملت البنادق بعدما أمست سبباً للهلاك لما أصابها من أعطال وضرورة الاستغناء عنها لتقارب مسافات الاشتباك بين المتقاتلين وما أصاب أكثر صناديق البارود من بلل؛ أما من أصرّ على تلقيم بندقيته وتعبئتها، فلقد تلقى ـ جزاء غفلته ـ طعنة خنجر أو نصل سيف باتر أو سنان رمح ممدود.

في تلك الأثناء، وبعد طلوع أنوار الصباح، أثار امتداد ساعات المعارك وشراستها، إضافة لما كان يعلو الى عنان السماء من أصوات الرصاص وصيحات المقاتلين، حماسة نساء القلعة وفتياتها، فارتقين أسطحها واعتلين أسوارها وصعدن فوق أبراجها ليشاهدن مصارعة رجالهن وعراكهم مع جموع جنود الأعداء، ورحنّ يزغردن ويهللن ويكبرن ويشجعن وينادين بأسماء رجالهن ليبعثوا في قلوبهم روح الشجاعة والحماس، ومنهن من جفّ كأس الصبر والإصطبار في صدورهن، فأسرعن يمتطين الجياد ويحملن السيوف وينطلقن الى ساحة الوغى لمشاركة رجالهن والاشتباك في عراك مع الجند، وترجل بعضن يتفحصن وجوه الرجال الممدين ويسعفن الجرحى ويعيدن من لزم سوء إصابته الى داخل أسوار القلعة لتضميد جراحه، بينما قتل بعضهن وهن يواجهن شجعان الجنود. وعندما شاهد الرجال جرأة نساءهم وانتشارهن بين صفوف المقاتلين، زاد ذلك من لهيب عزيمتهم وقوة حماسهم وشدة إصرارهم وبعث فيهم روح البسالة وأعاد الهمّة الى نفوسهم والقوة في أجسادهم، فضاعفوا من نشاطهم وزادوا من حركتهم واستماتوا في تضحيتهم وقتالهم أملاً في استقراب ساعة النصر، وهذا ما تسبب في المقابل من توهين عزائم أعداءهم وشلّ حركتهم.

ورويداً رويداً، بدأ أوار المعركة ولهيبها يخفت ويخف، وأصوات الطلقات تهدأ وصراخ الرجال يختفي، ونهض العديد من المصابين وهم يترنحون

يتحسسون مواقع أقدامهم وآخرين يضغطون على جراحهم محاولين بما تبقى من قواهم وقف تدفق دماءهم وينادون من حولهم بأصوات مبحوحة الاقتراب لنجدتهم، وبينهم من كانوا بلا حراك ممدين على وجوههم وقد امتصت الأوحال حرارة أجسادهم.

وهكذا بدأت نتيجة المعارك التي دامت طوال ساعات تلك الليلة الممطرة تنجلي وتظهر نتائجها، وإذا بساحة المعركة خالية من جموع الجنود وصفوفهم وقوادهم، بينما بقي دخان البارود الكثيف يحجب الإبصار وجثث الخيل تنتشر في كل مكان وما تبقى منها وقف صافناً مطأطأ الرأس منحني الرقبة بسرج خال يضرب بحافره تراب الأرض وطرف لجامه يلامس الثرى بسيقان ملطخة بالطين والدماء.

كان منظرا رهيباً موحشاً يبعث الرهبة والأسى في نفوس الشجعان والصناديد، وبدأ الأصحاب ينادون بأسماء بعضهم ويتجمعون من الأطراف يهنئون بعضهم بعضاً بأنفاس متقطعة وأصوات متحشرجة بعدما ملأوا سماء المعركة بالصراخ والصياح، وراح كل منهم يحمل أخاً أو أباً أو رفيقاً لمساعدته، ومنهم من انشغل بجمع البنادق والعتاد وسحب أكياس البارود من أحزمة القتلى، وتفرق بعضهم يطارد الجياد ويجمع لجامها ليقودها نحو قلعتهم.

وعندما تأكد حراس القلعة ممن لم يشاركوا في المعركة، إنجلاء الموقف لصالح إخوانهم وشاهدوا تشتت الأعداء وهزيمتهم، فتحوا البوابة على مصراعيها وخرجوا مهللين فرحين يركبون صهوات جيادهم منطلقين لملاقاة أصحابهم والترحيب بعودتهم وتقديم المساعدة والعون لمن يحتاجها منهم، تشاركهم النساء وهن يسابقن بعضهن لاستقبال القادمين، ومنهن من حملن أطفالهن على صهوات جيادهن وانطلقن لتلبية واجبهن.

أما وحيد، فاتخذ له ـ بهيئته الموقرة ـ مكانا أمام بوابة القلعة يستقبل القادمين ليشكرهم على مجهوداتهم وبطولاتهم ويواسي من جرح منهم. وبعدما تأكدوا من دخول آخر رجل منهم وأغلقت البوابة، راح الرجال ينتشرون في زوايا المكان متعبين متهالكين يطلبون الراحة والهدوء، بينما تسابق الأطفال يجولون عليهم بالطعام وقراب الماء لسقايتهم؛ وبمرور الوقت بدأت عملية

إحصاء القتلى الحزينة، فأحصوا ستين رجلا وضعفهم من الجرحى الذين انشغلت النسوة بتضميد جراحهم ومنهن من إنحنين بمحبة فوق أجساد أحبتهم الهامدة ينوحنّ ويبكين بحزن وصمت، بينما بدت وجوه أخريات مستبشرة تتهلل بالجذل والحبور لميتة رجالهن وأولادهن الكريمة. ثم بدأت عمليات الدفن وما صاحبها من حزن وبكاء، فحفرت قبور جماعية ودفن الأصحاب بملابسهم الدامية، لتتعانق أجسادهم في مماتهم، مثلما تعانقت في حياتهم.

***

أما الصورة داخل مدينة نيريز، فكانت بشكل آخر، حيث سادها الحزن والبكاء وتوشح لونها بالسواد وخرج أهلها ينقلون قتلاهم الى المقابر والجبانات في أطراف المدينة، وعلت أصوات الأذان من منارات المساجد وأغلقت أبواب الحوانيت والمحلات وأوقفت الأماكن العامة أعمالها، وسادها جوّ عام من الحزن والأسى، وأصبحت معركة الليلة الماضية حديث سكانها، وراح كلٌ يدعي مشاركته القتال ويستعرض بطولاته، وهناك من علا صوته يلعن ويشتم من تسبب بهذه الفتنة وهذا الخراب، وصبّ آخرون جام غضبهم على الحاكم واتهموه بالجبن والتخاذل وقلة الخبرة، وبين الحين والحين تمر مجموعة من الرجال تتبعها ثلة من النساء موشحة بالسواد وهن موشحات يحملون قتلاهم.

وهكذا مرّ يوم المعركة بمثل هذا الصخب والفوضى.

***

الفصل الثامن

اجتماع الخاسرين

في مكان ناءٍ داخل غرفة واسعة في قصر كبير خلف تلة عالية بعيداً عن ساحة المعركة وصخب نيريز وأحداثها، وقفت ثلة من الجند بكامل قيافتها وبنادقها بأيديها تحرس اجتماعاً لعدد من كبار الضباط منكسري الخواطر ذليلي الأنفس يعانون من هول صدمتهم ويدخنون لفائف السجائر بينما أقداح الشاي تهتز بين أصابعهم وعلى رأسهم حاكم المدينة ‘زين العابدين خان’ وقائد جيوش مدينة شيراز ‘شجاع الملك’. جلسوا بصمت يتفادى كلٌ منهم النظر في عين زميله غير مستوعبين ما حصل، منتظرين من يبدأ بكسر جدار السكون.

قطع ‘شجاع الملك’ حبل الصمت وقال وهو ينظر نحو الأرض ويهز برأسه متحيراً: كنت اعتقد أن أصحاب القلعة، مجموعة قليلة من طلبة المدارس الدينية لا خبرة لهم بالقتال وضرب السيوف يسهل التغلب عليهم، وهذا ما جعلني أخطيء الحكم في تقدير قوة بسالتهم.

حاكم المدينة: كان هذا أحد أسباب خسارتنا الأولى وما دعاني لطلب مزيد من النجدات، فلقد أدركت خلال المعركة، أنهم ليسوا عديمي خبرة كما كنت أظن، بل مقاتلين أشداء شتتت مجموعات صغيرة منهم مئات الجنود خلال ساعات.

قال ضابط آخر: كانوا يتقدمون تجاه مدفعي وهو ينفث بالنيران وكأني أدعوهم للعب والمرح.

وقال ضابط آخر: ما أغاضني هو ذلك الفارس الذي اخترق متاريس الجنود وراح يقتطف الرؤوس ذات اليمين وذات الشمال.

إلتفت ‘شجاع الملك’ الى حاكم نيريز وقال: لقد حصلت ثغرة بين صفوف جنودك عندما فسحوا المجال للمهاجمين بالالتفاف حول مرابض مدفعيتي وباغتوهم من الخلف، ولو صمد رجالك وثبتوا، لما حصل ما حصل.

ردّ عليه الحاكم وهو يحاول التملص من هذه الملاحظة: أنت تعلم أن جنودي غير مدربين، وأكثرهم انتدبوا للخدمة منذ فترة قليلة، وما زاد في إرباكهم تغلغل الأهالي بين صفوفهم. ومع ذلك، فلقد قتلنا وجرحنا الكثير من الأعداء؛ ودعونا نعترف أن خصومنا كانوا مقاتلين شجعان، فكم حاولت إصابة أحدهم وهو يتنقل بين صفوف الجنود بحركات بهلوانية، لكني كنت أخطئه في كل مرة بسبب شدة تساقط المطر. وإذا أردنا تقييم الموقف بشكل صحيح، فإن اللوم يقع على ضبّاط الفرق الشيرازية باعتبارهم من خيرة قوات المملكة، ومع ذلك لم يفلحوا بصد سيول هجمات الأعداء رغم ما معهم من مدافع وسلاح.

انتبه ضابط آخر بقي صامتاً طوال الوقت، لما سيحصل بين المجتمعين من خلاف إذا استمر الحال على هذا المنوال من الجدال وتبادل الملام، فبادر بالقول وهو يلفت انتباه الحضور باشارة من يده: لا يمكن نكران بسالة رجالنا وشجاعتهم، وكيف استماتوا في قتالهم، لقد قدمت قوات المدينة والأهالي والقوات الشيرازية أروع الأمثلة في الشجاعة والصمود، واذا خسرنا هذه المعركة، فما زالت المعركة طويلة، وسنطلب مزيدا من القوات المساندة ونجمع رجالا آخرين من بقية القرى التي لم تشاركنا المعارك. ومهما حصل، فمن الواضح جداً أن أتباع وحيد قد أصابهم الارهاق والإعياء مثلما أصابنا، وهم الآن منكفئين داخل قلعتهم ولا أظنهم سيستعيدون قواهم وحيويتهم خلال مدة طويلة، وخلالها نستجمع قواتنا ونحاصرهم ونقطع الامدادات عنهم حتى يستسلموا.

قال 'شجاع الملك' وهو يرنو من نافذة الغرفة نحو مراعي خضراء إمتدت بعيداً تعانق الأفق: في معارك جيوشنا السابقة ضد البابيين في قلعة طبرسي، وبعدما طال القتال شهوراً طويلة، وخسرت جيوشنا الكثير من قواتها ودُمرت لها أعداداً كبيرة من المدافع والمعدات، اتضح بجلاء أن لا سبيل لكسر الروح التي تمدهم بمثل هذه القوة العجيبة. وما أراه، هو أن أصحاب وحيد يقاتلون بذات تلك الروح. لقد أخبرني بعض أمراء الجيش ممن شاركوا في تلك الحروب، أن أعدادهم كانت لا تزيد عن ثلاثمائة مقاتل من طلاب المدارس الدينية، وكانوا يتدافعون فيما بينهم لينال كل منهم فرصة الموت قبل غيره؛ أما من قبض عليهم لاحقاً، فحيّروا الجلادين في رسوخ أيمانهم وشجاعتهم، فكان أحدهم ينشد الشعر ويرقص طرباً وهو متوجه لساحة الاعدام، وقدّم آخر لجلاده مكعبات سكر كانت

في جيبه قبل أن يقطع رأسه، وهو يقول له: 'ليس عندي غير هذه الحلوى لأقدمها لك تعبيرا عن شكري وامتناني، لأنك سترسلني الى محبوبي'. في الحقيقة لا يمكن لأعقل الحكماء تفسير حالات نشوتهم وحبورهم وهم يساقون للذبح، حقاً كانوا يهيمون في عوالم غير عوالمنا. لقد عجزت قوات الحكومة بعدتها وعديدها في التغلب على تلك الفئة القليلة حتى بعدما دامت المعارك والحصار قرابة العام، كانوا يكتفون بحفنة من الماء للبقاء على قيد الحياة، وبعدما أمسكوا بهم وذبحوهم وبقروا بطونهم، وجدوا بداخلها نباتات برية وقطعاً من جلود النعال والأحزمة وسروج الخيول كانوا يقتاتون بها أثناء شهور الحصار، بينما ظن قادة الجيش أن مؤونتهم لا تنفد ولابد أن هناك من ينقل لهم صناديق الطعام والمؤونة سراً في ظلمات الليالي. وفي النهاية لم يخسروا معاركهم ويُغلبوا، إلا بعدما أقسم لهم القادة والأمراء أغلظ الأيمان، وعلى رأسهم الأمير 'مهدي قلي ميرزا' قائد جيوش المملكة ووعدوا بتركهم يمضون لحال سبيلهم إذا انسحبوا وهجروا مواقعهم، وكتب القادة لهم أغلظ العهود على أغلفة كتب القرآن الداخلية وختموها بأختام كبار أمرائهم وقادتهم. فكانت النتيجة مذهلة، إذ أثمرت تلك الخديعة ونجحت، فلقد صدّق أولئك المغفلون السذّج ما قدّم لهم من عهود ومواثيق وخرجوا من قلعتهم عزلاً تاركين أسلحتهم مستسلمين لمحاصريهم. وساعتها أمر قادة الجيوش بإبادتهم عن بكرة أبيهم، فمزقوهم شرّ تمزيق ولم ينج منهم إلا قلة قليلة سمّيت 'بقية السيف'، بعدما إفتداهم أهاليهم بأموال طائلة.

بقي زين العابدين ينصت باهتمام لما يقوله 'شجاع الملك'، وإذا به يرفع صوته ليقول بحماس وهو يستقرئ عيون سامعيه: لماذا لا نكرر هذه الخديعة مرة أخرى ونكتب لهم عهداً على كتاب القرآن بتركهم يذهبون لحال سبيلهم إذا ألقوا السلاح وهجروا القلعة؟

فكانت جملة نارية أبرقت لها عيون الحاضرين.

الفصل التاسع

الخـديعــة

مع أن جميع موارد البلاد كانـت تحـت تصـرف حـاكم نيريـز، فضـلاً عـن مساعدة وإمداد حاكم مقاطعة فارس وأهالي مدينـة شـيراز جميعـاً، إلا أنـه عجـز ومن معه عن قهر من كانوا فـي نظـره فئـة ضـئيلة محتقـرة غيـر مدربـة. وتأكـد وجميع محاربيه أن وراء الأكمة وخلف أسوار القلعة رجالاً أبسالاً أشداء لا يمكن إخضاعهم أو هزيمتهم. لذلك لم ير بُداّ مـن رفـع صـوت السـلام والأمـان قاصـداً الخداع والمكر الدنيء. فأمر جيشه بوقف كافة الأعمـال العسـكرية لبضـعة أيـام، وأرسل خطاباً مهيباً الى وحيد وأتباعـه، يـتلخص بمـا يلـي: "إننـا كنـا لغايـة الآن جاهلين بحقيقة معتقدكم، لذلك سمحنا للأشرار ليحملونا على الاعتقاد أنكم خـرقتم حرمة تعاليم الإسلام. فقمنا ضدكم وأردنا إبادة دينكم. وفي الأيام الأخيرة، وصـل علمنا من بعض رجـال الـدين والحكمـاء أن حـركتكم لا يقصـد منهـا أي غـرض سياسـي ولا يوجـد بيـنكم مـن يرغـب فـي قلـب أساسـات الدولـة. وقـد اقتنعنـا أن تعاليمكم لا تحوي خلافاً كبيراً لتعاليم الاسـلام، وكل ما تريدون إعلانـه علـى مـا يبدو، هو أن شخصـاً ظهـر مـن شـيراز وأن كلماتـه مـوحى بهـا وأقوالـه صـادقة وعلى المسلمين الاعتراف بـه. ونحـن لا يمكننـا الاقتنـاع بصـدق هـذه الروايـات والمزاعم، إلا إذا ركنتم إلى وضع ثقتكم بنا وبعثتم مندوبين لمقابلتنا، حيث يمكننا التحقـق فـي ظـرف بضـعة أيـام مـن صـدق دعـواكم. فـإذا أثبـتم صـدقها، فـنحن مستعدون أيضاً لتقبلها، لأننا لسنا أعداء للحقيقة، ولا يريد أحد منا نكرانهـا، وكنـا نعترف دائماً لرئيسكم أنه مـن أكبـر وأقـدر أنصـار الإسـلام، وننظـر إليـه كقـدوة وعلماً للهداية. وأن هذا القرآن الذي ختمنا عليه بأختامنا، أكبر شاهد علـى صـدق مرادنا. فليحكم بيننا كتابنا المقدس بصدق دعواكم أو بطلانها، ولينزل غضب الله ورسوله علينا إذا كنا نقصد خداعكم. وإن قبولكم لاقتراحنا يخلـص جيشـاً بأكملـه من الدمار. أما رفضكم، فيجعل معتقدكم موضع شك وحذر. ونحن نقسم لكم مـرة أخرى، أنه بمجرد اقتناعنا بصدق دعوتكم، فسنظهر من الحماس والإخـلاص مـا ظهـر مـنكم بهـذه الكيفيـة العجيبـة، فيكـون إذ ذاك أحبـاؤكم أحباءنـا وأعـداؤكم أعـداءنا، ومـا سـيأمر بـه رئيسـكم فإننـا نطيعـه. وبـالعكس إذا لـم نقتنـع بصـحة دعوتكم، فنعدكم أننا لن نمنع رجوع وفدكم سالماً إلى القلعة ومعاودة القتال معكم.

ونتوسل إليكم أن لا تسفكوا دماً بعد الآن، قبل أن تجتهدوا في إثبات صحة أمركم".

بعدما استلم وحيد كتاب القرآن الكريم وقبّله، وأكمل قراءة رسالة الحاكم، طلب من أعضاء الوفد الخروج وانتظار جوابه خارج بوابة القلعة، ثم التفت الى أتباعه وقال لهم: "يبدو أن ساعتنا الحاسمة قد دقت، فرغم علمي بحتمية غدرهم وسوء نواياهم، إلا أن قبولنا لإقتراحهم يجعلهم يشعرون بسفالة خدعتهم. وإن واجبي يحتم عليّ ويقضي الإستجابة لطلبهم وانتهاز الفرصة لكشف حقائق معتقدنا أمامهم وسعينا الحثيث لإرساء دعائم السلم. لذلك فأنا ذاهب اليهم مع وفد صغير سأختاره من رجالنا".

كان رجال القلعة ونساءهم يصغون باهتمام صامتين لما قرأه رئيسهم من فحوى رسالة الحاكم وما جاء به الوفد من اقتراحات وهم متجمعون حول باب غرفته وينتشرون على مقربة منها. وبمجرد فراغه من الكلام، رفع رأسه ينظر إليهم ويتفحص وجوههم منتظراً ردود أفعالهم واقتراحاتهم. فارتفعت أصوات بعض الرجال تحذر منذرة من مغبة الثقة باقتراح الحاكم ونواياه وبما قاله رجال وفده، بعد كل ما واجههم به من أفعال عدوانية ونوايا غادرة وسعيه الجاد في إفناءهم والقضاء عليهم خلال أسابيع المواجهات السابقة.

ساد الجمع فترة من النقاش والجدال وراح كلٌ منهم يبدي رأيه ويحاول إثبات حجته. لكن ذلك لم يدم وقتاً طويلاً. إذ سرعان ما هدأ الحال وعمّ الحاضرين الهدوء متفقين على ضرورة الاستجابة لرغبة قائدهم وأوامره، إضافة الى أهمية المحافظة على وحدة الصف وعدم التسبب بظهور انشقاق أو تصدع بين صفوفهم، وضرورة التماشي مع رأي الأغلبية ممن أظهروا ولاءهم وطاعتهم لرأي قائدهم.

عندها أرسل وحيد قائد قواته ليسلم وفد الحاكم رسالته التي يعلن فيها موافقته على اقتراح الهدنة والشروع في بدء المفاوضات، وأخبره أن يطلب منهم العودة الى معسكرهم لإعلان قرار الموافقة إثباتاً لحسن النوايا والرغبة في إرساء أسس السلام. وأكمل القائد قوله لأعضاء الوفد، أن رئيسنا سيلحق بكم في

ظرف ساعات قليلة مع عدد من أصحابه، متمنياً أن يكون في ذلك خطوة لتحقيق السلام وسبيلاً لوقف المعارك بيننا.

بمغادرة الوفد، عاد وحيد ليجتمع بأتباعه ثانية وليأمرهم بضرورة الإلتزام الصارم بما وعدوا به أعداءهم في تنفيذ بنود الهدنة ووقف كافة أشكال العنف والقتال وعدم إطلاق الرصاص على معسكر الجنود أو الاشتباك معهم حتى وقت عودته أو إرساله لهم تعليمات في رسالة مع أحد مرافقيه الذين سيذهبون معه، وطلب منهم الاستمرار بممارسة حياتهم العادية وأداء واجباتهم في حراسة القلعة، مؤكداً في الوقت نفسه، على عدم تصديق ما قد يصلهم عن لسانه من غير رجال وفده، وعدم الثقة إطلاقاً بأي شخص غريب أو وفد آخر ينقل لهم أية أخبار عنه.

الفصل العاشر

وحيد يقابل الحاكم

بعد هذه الكلمات، ودّعَ وحيد أصحابه وخرج مع خمسة منهم يمتطون خيولهم متوجهين الى معسكر الجيش. فخرج من الناحية المقابلة، 'زين العابدين' وبصحبته 'شجاع الملك' وعدد من كبار ضباطه لاستقباله والترحيب به. فقابلوه بالحفاوة والاحترام ورافقوه إلى خيمة كبيرة أعدت خصيصاً لإقامته، ثم نادوا على بقية الضباط وقدّموهم أمامه.

عندما شاهد وحيد جموع الجنود وسعة امتداد ما يحيط به من حلقات صفوفهم وتجرؤ بعضهم في التقدم وتقبيل يديه أمام ضباطهم، حيث كان الكثير منهم تواقون لمشاهدة شخصية مالك قلوب تلك الثلة من الشجعان التي أنزلت بهم كل هذه الخسائر. اغتنم الفرصة ليلقي أمامهم خطبة قصيرة أظهر فيها حسن النوايا ورغبته في إحلال السلام، وكانت كلماته الموجزة، من القوة والفصاحة والإقناع، بحيث خشي الحاكم تأثيرها على قلوب رجاله واحتمال تبديل ولاءهم.

ومما قاله وحيد: "حضرت لكم مسلحاً بالشهادة التي عهد بها إليّ ربي، ألست من سلالة رسول الله؟ فلماذا تقومون على ذبحي؟ ولأي سبب حكمتم عليّ بالقتل ورفضتم الاعتراف بالحقوق التي يقتضيها شرف نسبتي"؟

***

بقي وحيد ضيفاً عند الحاكم وكبار الضباط داخل المعسكر لثلاثة أيام وثلاث ليال، استضيف خلالها بكامل الاحترام وبمنتهى التقدير، وكان الجميع يأتمّون به في صلاتهم ويستمعون لنصائحه ومواعظه.

كانت مجموعة كبار الضباط في حقيقة سرّهم مستاءين لوجوده يتدبرون خطة لقتله والتخلص منه ويتآمرون لإبادة باقي أصحابه. وكانوا يعلمون تمام العلم، أنهم لو تجاسروا وأوقعوا عليه أقل ضرر، وأصحابه ما زالوا متحصنين خلف أسوار قلعتهم، فإنهم سيعرضون أنفسهم لخطر أكبر مما سبق وواجهوه، وكانوا يرتعدون من هياج نساء القلعة وانتقامهن، كخوفهم من شجاعة رجالهن

ومهارتهم، موقنين أن جميع قوات الجيوش ومواردها عاجزة عن إخضاع هذه الفئة من كبار السن والشبان ومن معهم، وأنه لا يمكن إحراز نصر مؤكد عليهم بغير تدابير الحيلة والمكر. وإتضح أنه لم تكن هناك رغبة جديّة لهم في إجراء مفاوضات أو حوار مع الضيف أو الوفد المرافق له. إلا أن 'زين العابدين' و'شجاع الملك' وكبار الضباط، كانوا يسعون جاهدين في التحايل على وحيد وإقناعه باستحصال رسالة منه يكتبها الى أصحابه داخل القلعة، ليخبرهم فيها بحصول اتفاق شامل وتسوية للخلافات القائمة بين الفريقين واقتراب موعد إعلان إنتهاء القتال والمعارك.

الفصل الحادي عشر

خيـانة

عندما لاحظ وحيد إزدياد ضغط المحيطين به لكتابة الرسالة، ولم يجد سبيلاً للتخلص من إلحاحهم رغم بقاءه متردداً في قبول هذا الطلب المتعجّل، اضطر أخيراً للرضوخ لاصرارهم بسبب تحدياتهم له في اثبات صدق محبته للسلام ووقف الحرب، ولم يجد سبيلاً سوى تحرير رسالة لجماعته يطالبهم فيها بالتحضير لإلقاء السلاح وترك مواقعهم لإنتهاء المفاوضات الى قرار بوقف الحرب وإحلال السلام؛ بينما حرر ـ في نفس الوقت ـ رسالة أخرى، يخبرهم فيها بما حصل، ويحذرهم من الانخداع بتدابير أعداءهم وانطلاء المكيدة عليهم.

ثم نادى على 'السيد عابد'، أحد أعضاء الوفد الخمسة الذين جاءوا معه من القلعة، وأعطاه الخطابين وأمره بتمزيق الأول حال مغادرته المعسكر، وتقديم الثاني الى أصحابه، وأوصاه أن يطلب من شجعانهم نيابة عنه، الاستعداد للخروج في هذه الليلة تحت جنح الظلام، ومهاجمة المعسكر لتشتيت شمل عدوّهم وتخليصه من أسرهم.

ما كاد 'السيد عابد' يستلم تعليمات وحيد وتوصياته، حتى توجه مباشرة الى 'زين العابدين' ليسلمه الرسالتين كاشفاً له عن خطة وحيد السريّة. فمزق الحاكم الرسالة الثانية، وأمره بتقديم الأولى الى المحاصرين، وطلب منه بذل كل ما في وسعه لإقناعهم باسم رئيسهم وبالنيابة عنه للخروج والتفرق، ووعده بمكافأة عظيمة إذا نجح في مسعاه وحقق غايته.

ذهب الخائن الى القلعة وهو يرسم معالم الفرح والبشرى على وجهه وملامحه. فاستقبله المحاصرون بحرارة وترحاب باعتباره واحداً منهم وموضع ثقتهم، وراحوا يطمئنون منه على أخبار قائدهم وسلامته وعلى سير المفاوضات الجارية وما كان من أمر نتائجها. فراح يطنب في شرح مجريات أحداث الأيام الثلاثة الماضية، وكيف تم التوصل بشق الأنفس الى اتفاق لوقف القتال وسحب القوات والعفو عن المتحصنين. ثم أخرج رسالة الخيانة ليسلمها اليهم، مضيفاً أن رئيسهم استطاع اقناع كامل الجيش على اعتناق دينهم. وبناءً عليه، فهو يأمرهم بترك مواقعهم والخروج من القلعة ليعود كلا منهم الى حيث يشاء.

ومع إن الأصحاب إندهشوا من فحوى الرسالة وتشككوا من محتوياتها، إلا أن أوامرها كانت واضحة وصريحة، خاصة وهي بخط يد وتوقيع قائدهم، فلم يجدوا سبيلا إلا الموافقة على ما جاء فيها والشروع بتنفيذ أوامرها، واتفقوا على التفرق والانسحاب وترك مواقعهم، ثم شرعوا بتجيهز أنفسهم وحمل أغراضهم وبدأوا ينسلون بهدوء في ظلام تلك الليلة متجهين نحو داخل المدينة للانتشار بين أزقتها.

في تلك الأثناء، كان 'زين العابدين' حريص على مراقبة ما يجري داخل القلعة وخارجها، وكانت مقتطفات الأخبار تصله تباعاً وعلى الفور. فشعر بفرح غامر يكتنفه لنجاح خطته وهو يرى ويسمع بخروج المحاصرين في عتمة الليل وهم يتسللون نحو أطراف المدينة، لأنه أعد مسبقاً خطة للقبض عليهم تمنعهم من دخولها، خشية تفرقهم وصعوبة العثور عليهم، إذا عادوا لجمع شملهم ومنازلة جيشه، وسيقع في ورطة عظيمة لن ينجو بعدها من سيوفهم إذا ما تحققوا من خديعته.

لذلك أرسل كتيبة مسلحة من شجعان جنده ليكمنوا لهم في ظلام الليل ويقطعوا عليهم طريق الدخول ويلقوا القبض عليهم.

وهكذا.. سرعان ما وجد شجعان القلعة وعوائلهم أنفسهم محاصرين والسيوف والحراب تحيط بهم من كل الجهات وغالبيتهم عزّل من السلاح، إلا فئة قليلة منهم.

الفصل الثاني عشر

المقاومة المستميتة

حالما شاهد النازحون وعوائلهم وضعهم اليائس، أدركوا ما وقعوا فيه من فخ وخديعة، فارتفعت إشارة القتال بينهم عالياً، حينما كبر أحدهم، وحاولوا بما معهم من قليل السيوف والبنادق والحجارة، شقّ طريقهم نحو بوابة مسجد قريب للاحتماء بداخله، فكانت النتيجة مقتل وجرح بعضهم، بينما تمكن أكثرهم بعد تدافع وعراك من دخول المسجد رغم ما أثقلوا به من جراح.

في هذه الأثناء كان قد استبق أحد ضباط الجيش وصول خصومه وكمن لهم في إحدى منارات المسجد ينتظر ورودهم. وما أن شاهدهم يحتمون داخل أسوار المسجد، حتى راح يطلق عليهم الرصاص ويصطادهم من علو واحداً تلو الآخر. وهذا ما دعى بأحدهم الى تسلق المنارة ومهاجمته والتغلب عليه ثم قتله.

في هذه الأثناء، بدأت أنوار الصباح تنير أركان المشهد، وعندما أدرك الأصحاب أن بناء المسجد لا يوفر لهم الحماية الكافية، بدأوا يبحثون عن أي مكان مناسب آخر ليحتموا به من رصاص الجنود وسيوفهم، بينما كانوا ـ في نفس الوقت ـ قلقون يتسائلون عما حلّ بمصير قائدهم، فهم الآن في أشد الحاجة لتعليماته ونصائحه، وفكّر بعضهم بضرورة الذهاب الى داخل المعسكر للبحث عنه وتخليصه بعدما انكشفت الخديعة، إلا أن أكثرهم أيقن بمقتل سيدهم وانتهاء أمره، إضافة الى استحالة الخلاص من مأزقهم.

الفصل الثالث عشر

نكث العهود

في تلك الأثناء، تنفس 'زين العابدين' الصعداء وتشجع وضباطه بعدما نجحت خطتهم في تشتيت الأصحاب وتفريقهم والتغلب عليهم وأسر بقيتهم. فبدأوا يبحثون عن وسيلة للتخلص من قَسمهم الذي عقدوه وعهدهم الذي كتبوه، وتشاوروا ملياً في كيفية قتل خصمهم والتخلص منه ومن الوفد المرافق له، وطرحت العديد من الاقتراحات والآراء، إلا أنهم لم يتفقوا على رأي.

وبينما هم يتداولون الأمر، قام من بينهم ضابط يدعى 'عباس قلي' ليقول: "بما أني لم أشارككم القسم واليمين، لذلك فأنا بريء وفي حلّ من وثاقه، وبهذا يمكنني مع مجموعة من أقارب بعض القتلى، أن أخلصكم من وحيد ومن معه وأقتلهم. وأوكد لكم، أن اليمين الذي يخيفكم نقض عهده، لا يشملني ولا يلزمني ومن سأختارهم معي لهذه المهمة، وأنا مستعد لتنفيذ ما لا تقدرون عليه". ثم انفجر في سورة غضب ورفع صوته عالياً: "إني أقدر أن أقتل أي شخص يخالف قوانين المملكة". وعندما شاهد سكوت الضباط وصمتهم من حوله، وعدم اعتراض أحدهم عليه، أدرك حصوله على موافقتهم، فخرج في الحال لينادي على بعض من قُتل أقاربهم خلال المعارك لتنفيذ ما عزم عليه.

ومع ما ساد من صراع وقتال بين المتحاربين في الفترة الماضية، إلا أن كثيراً من الجنود والضباط، نأوا بأنفسهم عن الانتقام لقتلاهم وتنفيذ مثل هذه الجريمة بحق رجل من السادة الأشراف لم يسمعوا عنه إلا أجمل الكلام ولم يشاهدوا منه سوى الصلاة والصوم والتعبد داخل معسكرهم، بينما يعلمون بالمقابل، سوء أخلاق ضباطهم وما يمارسونه من موبقات داخل خيامهم.

الفصل الرابع عشر

مقتـل وحيـد

كان أول من تقدم لمهاجمة وحيد وفاجئه وهو جالس داخل خيمته، رجلان سبق وقُتل لهما أخوين في المعارك الجارية، شاركهما ثالث، هو الضابط إبن أخ 'زين العابدين' قائد الجيش السابق الذي قتل في المعركة الثانية.

وفي سورة من الغضب الشديد، إنهال الثلاثة عليه ضرباً ولكماً وركلاً وشتماً، ثم طرحوه أرضاً وتكالبوا عليه وأسقطوا عمامته وخلعوا عنه حزامه الأخضر ولفوه حول رقبته ثم أوثقوه الى جواد وسحبوه بهذه الكيفية المهينة بين خيام المعسكر وهم لا يكفون عن إهانته وضربه، ثم توجهوا به الى شوارع المدينة وأزقتها، تلحق بهم صفوف المتفرجين وجموع المستهزئين.

عندما شاهد الناس الأسير وسوء حاله وعلموا أنه رئيس جماعة القلعة، تجمعوا عليه من كل مكان وراحوا يمطرونه بالحجارة والعصي والزجاج وبكل ما طالته أيديهم. ولم

تصدق نسوة المدينة، ما تشاهده أعينهن، فخرجن من بيوتهن ومن خلفهن أطفالهن وهن يزغردن ويدقن الطبول والدفوف ويصيحن بهياج وعصبية ويرقصن فرحات بانتهاء المعارك واحراز النصر، وكن يهزأن بوحيد ويشتمنه وهو في شبه غيبوبة نصف عار يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وبهذه الكيفية والحالة البشعة انتهت حياة وحيد الباسلة. ولم تكن لتناسب عظمته، ميتةً، إلا مثل هذه النهاية الجليلة، وتتوج بمثل هذا المقدار من التضحية وحقد المتعصبين وشراستهم.

وهكذا توفي العالم النحرير وحيد الدارابي بتاريخ 29 يونيو/حزيران سنة 1266هـ/ 1850م.

***

الفصل الخامس عشر

المـذابـح

لم تهدأ الأمور بمقتل وحيد والقضاء على جماعته. بل بالعكس، فقد كانت تلك الساعة هي إشارة البدء لانطلاق هجوم أشد شراسة وأعمّ فتكاً لكل من بقي من أتباعه على قيد الحياة في مدينة نيريز والقرى المحيطة بها.

في البداية، توجهت جموع الهائجين نحو القلعة ليحرقوها ويهدموها ويسووا بناؤها وأبراجها بالأرض، ثم توجهوا نحو من بقي على قيد الحياة من حُماتها وفرسانها وكبلوهم بالأصفاد وأوثقوهم بالحبال بعدما صادرا أملاكهم ونهبوا أموالهم وخربوا بيوتهم وملئوا رؤوس من قتل منهم بالتبن ونقلوها كتذكارات الى شيراز للدلالة على شجاعتهم وغلظتهم. وخلال الطريق قتلوا الكثير من أسراهم أشنع قتلة بعدما أذاقوهم أشد أنواع العذاب ومعهم نحو أربعين أو خمسين امرأة وصبي أخذوهم أسرى كوجبة أولى الى هناك. وبهذه الكيفية رجع الجيش المنصور إلى شيراز. فكان يوم دخولهم يوم فرح عام، حيث جمعوا الأسرى في الشوارع والأسواق وهم عرايا يرتجفون من الجوع والبرد ثم سيقوا تحت لسع السياط الى حيث مقر الأمير 'فيروز ميرزا'، وكان في وقتها جالساً يتناول الطعام في منزله الصيفي. فوقف أمامه 'ميرزا نعيم' ليتلو وبقية الضباط، تفاصيل انتصارهم وما آل اليه مصير وحيد وأصحاب القلعة. فهنأهم الأمير والحاضرون وامتدحوا شجاعتهم.

وتقدم أحد الجلادين ليقول لحاكم شيراز:- 'لقد عملنا كل ما أمرتنا به، حتى أنه لم يبق بابي واحد!'. ثم ابتدأ اثنان من أصاغر رؤساء إحدى القبائل التي اشتركت في الميدان، يشرحان تفاصيل أعمالهم الباسلة وهم يسمّون المساجين بأسمائهم واحداً تلو الآخر.

امتطى 'ميرزا نعيم' جواده وسار يحيط به رجال يحملون رماحاً رفعت على أسنتها رؤوس قتلى البابيين، وكانوا ينخسون الأسرى بالسياط والسيوف، ثم زجّوا النساء عرايا تماماً في خنادق ملئت بالماء وبدأوا برفسهن ورجمهن وجلدهن والبصق عليهن. ولما تعب الجلادون ومعذبوهن، وضعوهن في إحدى المدارس تحت التعذيب المستمر لمدة عشرين يوما.

وعندما شاهد غوغاء المدينة ومشردوها حماية الجنود لهم وتشجيعهم على مطاردة أصحاب القلعة للقبض عليهم والفتك بهم، تجمعوا حتى فاق عددهم خمسة آلاف رجل وامرأة، وراحوا يبحثون على كل من يشكّون بميله الى جماعة وحيد، فيقبضون عليه ويكبلونه ويعذبونه ثم يذبحونه.

أما نساء القلعة، فلم يكنَّ بمنأى عن مواجهة ذات هذا المصير البشع، فكانوا يأسروهن وأطفالهن ويعاملونهن بوحشية لا يجرؤ قلم على وصفها، في حين فضّلت اثنتان من النساء رمي أنفسهن في بئر حتى لا يؤسرن.

ويظهر ويا للأسف، أن هذا السفك للدماء، لم يكن كافياً لإشباع ضغينة أعداءهم، وفي مقدمتهم 'زين العابدين' الذي كان يخشى انتقام أهالي وأقرباء مَن تغلب عليهم وقهرهم في مستقبل الأيام. لذلك حاول أن لا يترك منهم بقية باقية، وتأصّل حقده وصبّ جام غضبه على كل من بقي حياً، فأمر في البحث عنهم وزجّهم في سراديب مظلمة تحت الأرض ولم يرسل منهم الى شيراز سوى الفقراء، أما الأغنياء فقد سلب كل أموالهم وممتلكاتهم ثم صفّدهم وحبسهم وكلف شخصاً عتلّاً زنيماً باستعراضهم في شوارع المدينة وضربهم وتعذيبهم ثم قتلهم، وكان أهالي نيريز يجدون في ذلك تسلية ومرحاً، فتناولوهم بكل وحشية وصلبوا كثير منهم بأربعة مسامير على عواميد خشبية ووضعوا قصبات محروقة تحت أظافرهم المصفّدة وكووهم بسياخ الحديد المحمّاة ومنعوا عنهم الأكل والشرب وخزموا أنوفهم وجرّوهم بالحبال كما تجرّ الدببة. وكانوا يدقون المسامير في أقدامهم ويجبروهم على المسير ليسخر منهم العامة. واقتيد في الطرقات عدد من كبار شخصيات المدينة بعدما خلعوا عنهم ثيابهم أمام أعين الجمهور وهم يصبون عليه اللعنات والإهانة ويدورون بهم على أبواب البيوت يطلبون لهم الصدقات والإحسان، وكم من بيت بكى أصحابه وتألموا على حالهم، وكم منهم شتمهم وبصق في وجوههم وزادوا من إهانتهم، ثم رموهم في بركة ماء قذرة وجلدوهم بكل قسوة، واستأجروا رعاع الناس ليسلطوا على أجسادهم المرتجفة أنواع العذاب المخيف وشجعوا بالنقود والتهديد من أحجم عن المشاركة، وكم من فقير متعفف رفض وتراجع مشمئزاً ساخطاً.

وتمكن عدد من المطارَدين النفاذ بإعجوبة في خضم هذه الفوضى الدامية وتدبروا أمرهم قاصدين العاصمة في محاولة منهم للشكاية عند الملك الشاب

ناصر الدين شاه على ما يجري من مذابح وقتل، لكنهم اعتقلوا على مقربة من أبواب العاصمة، بعدما تعرّف عليهم رجال قافلة من أهل شيراز، فأعادوهم مسلسلين، وهناك أمر الأمير فيروز بقتلهم.

أما النسوة اللائي قبض عليهن في الحملة الأخيرة، فقد أفرج عن نصفهن في نيريز قبل تسفيرهن، بعدما قاسين كل أشكال ـ الاعتداء ـ على أيدي الجلادين والغوغاء، وأخذ النصف الآخر على ظهور الخيل والبغال الى شيراز، واضعين كل اثنين منهن على جواد أو بغل غير مسرج وساقوهن وهم يذيقوهن أشد أنواع العذاب، ثم تركوهن عرايا لمصيرهن البائس بعدما هلك أغلبهن خلال السفر وبعضهن أسلمن الروح لاحقاً من شدة العذاب قبل الإفراج عنهن.

شاهد عيان

ووصف شاهد عيان من أهالي شيراز جانباً من هذه المأساة الكبيرة، قال: "كان ذلك اليوم يوم فرح عام وسرور، وانتشر الأهالي في المزارع والحقول المجاورة ومعهم طعامهم وكثير منهم شربوا سراً زجاجات خمر كاملة. وكان الجو يدوي بأصوات الموسيقى والأغاني من العازفين، وعلت أصوات الضحك من بنات الهوى، وكانت الأسواق مزينة بالأعلام والفرح في كل مكان. وحدث فجأة سكوت عام حينما رأى الناس 32 جملاً يحمل كل واحد منها امرأة مسجونة أو طفل، مربوطين ومطروحين على السروج كالحزم، وحولهم عساكر يحملون حراباً طويلة يرتفع على سنان كل منها رأس بابيّ قتيل من سكان نيريز. وبوصول هذه الأحمال، أهالت بشاعة منظرها أهالي شيراز بشدة، وسكتت الموسيقى وتوقفت الراقصات وعاد كل منهم حزيناً مكتئباً إلى منزله. ومر هذا الموكب البشع ليخترق الأسواق لغاية سراي الحاكم.

***

الفصل السادس عشر

نـهاية حاكـم نيريز

اكتسب شاب يلقب ‘علي السردار’ سمعة طيبة لشجاعته بما أسداه من مواساة وعناية لعائلات البقية الباقية من ملحمة نيريز. وكثيراً ما شوهد يخرج من ملتجئه في غسق الليل، وهو يحمل ما يستطيع عليه من مساعدات وعون للأرامل والأيتام الذين كانوا يقاسون الشدائد جراء تلك المأساة. وكان يوزع الطعام والملابس على المحتاجين أثناء الليل بكرم وجود، ويخفف من آلامهم ويواسيهم في أحزانهم. فأثارت مناظر المعاناة المستمرة التي قاساها هؤلاء الأبرياء حزناً ومرارة شديدة لديه ولدى بعض أصحابه. لذلك قرروا ذات يوم صبَّ جام غضبهم على ‘زين العابدين’ الذي كان لا يزال مقيماً في نيريز، واعتبروه السبب المباشر لشقاء أهاليهم ومعاناتهم، ولظنهم بأنه لا يزال في قلبه رغبة في إذلالهم وتعذيبهم أكثر من ذي قبل، عزموا على التخلص منه وقطع دابره. ففاجئوه وهو في الحمّام العمومي يستحم عارياً، ونجحوا في مقصدهم وأشبعوه تخريماً بخناجرهم وتقطيعاً بمديّهم.

لكن هذه الجريمة، لم تمر دون انتقام وعقاب، حيث تسببت في حصول اضطرابات بشعة جديدة أعادت ذكرى رعب المذابح السابقة وبشاعتها. ولمحبة الزوجة لفقيدها، راحت تحرّض الحاكم ‘ميرزا نعيم’ في الانتقام لدم زوجها، ووعدته ما يشاء من مجوهراتها وممتلكاتها. وبهذا تمكنت السلطات من القبض على جمّ غفير جديد من البابيين الذين تمكنوا من الهرب وقت تلك الأحداث الرهيبة السابقة وعادوا لمدينتهم بعد أن هدأت الأمور لاحقاً. فضرب وعذب وقتل الكثير منهم بطرق وحشية، وزجّ من بقي منهم في السجون بانتظار وصول تعليمات العاصمة. وعرض رئيس الوزراء ‘ميرزا تقي خان’، الملقب ‘أمير النظام’ قائمة بأسماء من ألقي القبض عليهم على الشاه الذي استحسن هذا النجاح، وأمر بسوقهم إلى العاصمة.

***

شاهد عيان

ويروي ‘ميرزا شفيع النيريزي’، أحد شهود العيان، مأساة المذبحة الأخيرة في رواية مفصلة نمّقها في كُتيب خاص، أشار فيها بالدقة إلى كل تفاصيل هذه الحادثة المؤثرة. ومما ذكره إن الذين قتلوا، لا يقل عددهم عن مائة وثمانين رجلا وإمرأة، بينما بلغ عدد الجرحى ما يقارب هذا العدد. ورغم إصاباتهم البليغة، فقد رحّلوا إلى طهران بكل قسوة وهم يعانون من جراحهم، ولم ينج من الهلاك بسبب التعذيب خلال سفرهم سوى ثمانية وعشرون نفراً، سيق منهم خمسة عشر نفراً فور وصولهم إلى منصة الإعدام. أما الباقون فطرحوا في السجن ومكثوا فيه لمدة سنتين يعانون الفظائع الرهيبة. ورغم الإفراج عنهم لاحقاً، إلا أن غالبيتهم قضى نحبه أثناء الرجوع إلى موطنهم نتيجة إنهاك قواهم من آلام السجن الطويلة والأسر القاسي.

شاهد عيان آخر

وروى أحد المشاركين شخصياً في تنفيذ هذه الجرائم بعد سنين طويلة حادثة تشمئز منها النفوس، قال:ـ "إنه ومن معه، اعتقلوا أربعين امرأة وطفل، ووضعوهم وسط مغارة في جبل، وجمعوا أمام بابها كثيرا من الحطب والأخشاب وصبّوا النفط عليها وأشعلوا فيها النيران. وبعد ثلاثة أيام صعد الى هناك بدافع الفضول ليلقي نظرة على مكان الحادثة، فرأى كومة من الرماد، والنيران قد خمدت، وكانت جميع النسوة جالسات كل منهن في ركن قريب من الجدار يحملن أطفالهن في حجورهن في دائرة على ذات الكيفية التي تركوهم عليها، ومنهن من إتكأت رؤوسن على ركبهن. فامتلأ دهشة ورعباً لمنظرهن وظنّ أنهن أحياء والنار لم تؤذهن، فتقدم ليدنو والفضول يدفعه ليتفحصهن عن قرب، فوجدهن وقد احترقن وتفحّمن وأولادهن جميعا وتحولوا الى رماد، وبمجرد أن مدّ يده ليلمس أقربهن، إذا بها تنهار الى كومة رماد. فخرج مسرعا وهو يشعر بأسف وأسى عميق".

***

الفصل السابع عشر

مصير قـادة الجيش

وروى حفيد ‘شجاع المُلك’ وإبن أخ ‘ميرزا نعيم’، اللذان شاركا بدور كبير في ملحمة نيريز، بعد مرور ثمانية وثلاثين عاما، الحكاية التالية، رواها للمؤرخ ‘نبيل زرندي’، قال:ـ أن جده كان متردداً في قبول ترأس الحملة، لذلك استشار رجلي دين يطلب نصيحتهما، فأكدا له أن مثل هذه الحرب تعتبر مقدسة عند الله وسيأخذ أجره في الجنة.

أما ما كان من نهاية مصيره، فلقد مات في كرب عظيم ومصائب جمّة، ووقع مريضاً وقد فقد حاسة السمع حتى يوم وفاته. وفي اليوم الذي كان يفارق فيه الحياة، لاحظ الذين حوله من حركة شفتيه، أنه يهمس يريد أن يقول شيئاً، فانحنوا ليلتقطوا كلماته الأخيرة. فسمعوه يقول ثلاث مرات بصوت خافت:ـ ‘بابي! بابي! بابي!’. ثم سكت ومات.

ويستطرد كلامه، أما عمّي الكبير ‘ميرزا نعيم’، فقد غضبت عليه الحكومة وغرّمته مرتين مبالغ طائلة، وحكم عليه في مرة لاحقة بأن يقاسي أنواعاً مختلفة من العذاب، فوضعوا بين أصابعه قطعاً خشبية وربطوها بالحبال بقوة، ثم راحوا يصبون الماء البارد عليها حتى تتقلص وتنكمش فتزيد قطع الخشب من آلامه حينما تبدأ بالضغط على أصابعه، وهكذا بقي فترة طويلة يعاني ويتعذب ولا من ناصر ولا معين. بينما وضعوا قدميه داخل آلة تعذيب تشبه الحذاء المستعمل لذات الغرض في انكلترا، ثم أوقفوه تحت أشعة الشمس بعدما مسحوا رأسه بالدبس عارياً لينجذب اليه الذباب، وبعد تعذيبه بهذه الأنواع وغيرها مما هو أقسى وأذل، طرد من الخدمة ذليلاً حقيراً لا يملك شيئاً تماما، بعد كل ذلك الغنى الهائل وتلك الأموال التي جمعها من المظلومين ومن أرملة حاكم نيريز ‘زين العابدين خان".

النهـــايـة

*****

الخاتمة

بعدما قرأنا وقائع كل هذه الحوادث الدامية الأليمة والوقائع التاريخية الرهيبة والتضحيات الجمّة بالغالي والنفيس وبذل الأرواح والأولاد وهتك أعراض الزوجات والبنات. يستغرب المرء من حالة تلك النفوس السكارى بمحبة الله، إذ لا يمكن أن يكون قد أصابهم جنوناً عاماً مرة واحدة، كما لم يكونوا طامعين بمناصب أو أملاك دنيوية أو ثروات مادية. فماذا حدث لهم كي يقدموا كل تلك التضحيات الغالية وفي مقدمتهم رجل جليل مثل وحيد دارابي أعظم وأجل علماء عصره في بلاد إيران بأتمها. كما لم يكن الفريد في مثل هذه الفدائية العجيبة، فهنالك الكثير من العلماء ورجال الجيش والموظفين والطلاب وعامة الشعب والنساء وفي مقدمتهن السيدة الشاعرة 'قرّة العين' الطاهرة، ناهيك عن شرائح كثيرة من المجتمع؟ فلا بد وأنهم قد تأثروا بموقف عجيب سلب لبّهم وقلب كيانهم وبدّل أحوالهم ونفخ فيهم مثل هذه الروح المدهشة الباسلة التي لم تخمدها نيران المدافع ولم تكسرها سيوف الجلادين.

فلنقرأ ما ذكره وحيد دارابي لأحد أصدقاءه ويدعى 'عظيم'، الذي نقل عن لسانه ما حدث في بداية القصة أثناء لقاءه الأول مع 'الباب الشيرازي' في بيت خاله 'سيد علي'. قال وحيد:- (لقد أسهبت في محضره في إظهار معارفي بلا مبرر، ولكنه بكلمات قليلة تمكن من الإجابة عن كل أسئلتي وحلّ لي ما أشكل عليّ. وشعرت أمامه بتذلل وخضوع جعلني أسرع وأطلب الانصراف من أمامه). وعن مقابلته الثانية، قال:- (كنت أشعر إذ ذاك أني أنام نوماً عميقاً وكانت كلماته وإجاباته عن المسائل التي نسيت أن أسألها، توقظني من سباتي، وكان يتردد في أذني وفي سرّي صوت يقول: 'ألا يمكن أن يكون ذلك كله من باب المصادفات'؟ وكنت مضطرباً لدرجة لم أتمكن من ترتيب أفكاري، وطلبت ثانياً الإذن بالانصراف). أما عن المقابلة الثالثة، فقال:- (صممت أن أطلب من حضرة الباب في سرّ سرّي تفسيراً لسورة الكوثر من القرآن. وعزمت أن لا أذكر هذا الطلب في محضره. فإذا أتى بالتفسير من تلقاء نفسه وبكيفية تخالف بحسب رأيي التفاسير المعهودة، اقتنعت إذ ذاك بصحة رسالته السماوية واعتنقت أمره، وإلا فلا أعترف به. وبمجرد أن أدخلت إلى محضره، شعرت بخوف لم أكن أعلم سببه، وكنت أرتجف وأنا أنظر إلى وجهه، ومع إني كنت قد حضرت عدة مرات

أمام الشاه نفسه دون أي اضطراب، إلا إني كنت غير قادر على الوقوف على قدمَي. ولما شاهد حالتي، قام من مقعده وتقدم نحوي وأخذ بيدي وأجلسني بجانبه وقال: ‘اطلب مني كل ما يريده قلبك، أذكره تواً لك’. فبقيت صامتاً في حيرتي كطفل لا يقدر أن يفهم أو يتكلم، وشعرت بعجز عن الاستجابة. فتبسم وهو ينظر إليّ وقال: ‘إذا فسرت لك سورة الكوثر، هل تعترف أن كلامي هو من روح الله؟ وهل تعترف بأن بياني لا علاقة له بالسحر والشعوذة؟’ فسكبت عيوني الدموع وأنا أسمعه يلفظ تلك الكلمات. وما تمكنت أن أتكلم بشيء سوى الآية القرآنية: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين". وكان الوقت لا يزال باكراً من ساعات العصر إذ طلب ‘الباب’ من الحاج ميرزا سيد علي أن يأتيه بعلبة أقلامه وبعض الورق ثم بدأ تفسيره على سورة الكوثر. وكيف أقدر أن أصف جلال ذلك المنظر المهيب؟ فكانت الآيات تنهمر من قلمه بسرعة مدهشة لا تصدق. وكانت سلاسة كتابته العجيبة، وعذوبة همسات صوته وتغنياته، وقوة بيانه المهيب قد اجتمعت لتدهشني وتحيرني. واستمر على هذا المنوال لغاية الغروب. ولم يتوقف حتى أتم تفسير السورة بكاملها. ثم وضع القلم وطلب الشاي. وبعد ذلك ابتدأ يقرأ التفسير بصوت جهوري أمامي. فكان قلبي يخفق وصرت كالمجنون من شدة تأثري وأنا أصغي إلى نغمات قراءته الشجية التي لا توصف بالعبارة وتفسيره الرفيع الهادئ لتلك الكنوز المحجوبة. وسحرني جمالها على شأن كنت على وشك الإغماء ثلاث مرات. فكان ينعش قواي المنهكة برش نقط من ماء الورد على وجهي، فاستعيد بعدها قوتي وأتمكن من متابعة قراءته للنهاية. ووصل إيماني بعظمة الأمر إذ ذاك إلى درجة، لو اجتمعت قوات الأرض جميعها واتحدت ضدي فلا تقدر أن تقلل شيئاً منه).

****

قدمها بتصرف
سيفي سيفي
مارس 2016 م
النرويج / بيرگن